خطر الماسونية .. والمؤامرة العالمية ؟!

يدها من حديد.. وبأسها شديد.. تجذب إليها الصغار.. وتشد إلى حظيرتها الكبار؟!

أصاب الأستاذ الأديب « على خميس» كبد الحقيقة عندما حذر من مغبتها فى مقالته «الثورة المصرية من مخلب البلطجية إلى أنياب الماسونية».

الماسونية كما عرفها المستشرق الهولندى (دوزى) هى عبارة عن: «جمهور كبير من مذاهب مختلفة تلم شعثها غاية واحدة هى إعادة هيكل سليمان الذى هو رمز إسرائيل»، وهى عبارة عن شباك حاكها تسعة من أحبار اليهود منذ ردح قديم من الزمان ضللوا الناس بشعارهم المزيف (حرية – عدالة – مساواة) يحمل فى طياته بروتوكلات حكماء صهيون وأحاطوا دعوتهم بالكتمان إحاطة السوار بالمعصم وكانت كلمتهم التى تتردد على أفواههم فى هذا الصدد (أمنع من السر الماسونى)، والهدف الأسمى لهم هو انتزاع فلسطين من هويتها العربية، وعقيدتها الإسلامية، ومن هنا يفوزون بالمغنم، وعلى عاتق الأمة العربية، بل وجميع الأمم يقع المغرم.

وفى كتابه «أحجار على رقعة الشطرنج» يكشف مؤلفه «وليم جار كار» حقيقة الماسونية بعد أن أنفق من عمره عقودا أربعة (منذ عام ١٩١١ حتى عام ١٩٥٠) فى البحث والتنقيب، عن هدف الماسونية المغيب، وتوصل إلى أنها إنما تسعى جاهدةً إلى أن يتحول العالم برمته إلى دول تصطرع فيما بينها حتى يمسى العالم بما فيه وما يحويه خرابا يبابا.

وقد دأب مؤسسها الأول «آدم وايزهاويت» على أن ينشر مذهب الماسونية منذ ولادة شهر مايو ١٧٧٦ حيث كان يعمل أستاذا للقانون فى بافاريا أحد الدول الجرمانية فسعى سعيا دؤوبا على ضرورة القضاء على الحكومات وطمس الأديان السماوية أو بالأحرى الدينين المسيحى والإسلامى، وارتأى أنه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلا عبر تقسيم الشعوب (أو الجوييم) «الذى يعنى جميع العالم ماعدا بنى إسرائيل» عن طريق بذر بذور الشقاق بين الدول، وزرع المشكلات العنصرية والاقتصادية والاجتماعية وإشعال نيران الحروب الأهلية والدولية فى أرجاء الدنيا، كما كان فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، هنا نشأت جماعة النورانيين (المحفل الماسونى) وكان مغزاه ومرماه وأد الإرادة الفردية وقتل النزعة

الوطنية وجذب العديد من الرموز القومية من العلماء والرؤساء وممن يشغلون مراكز المدراء من أرباب التجارة وأساطين المال إليهم .. ومن ثم تأسس محفل الشرق الكبير (المحفل الماسونى)، ولقد نجح هذا التشكيل العصابى فى إنشاء ثلاثة معابد متخصصة فى تأهيل الشباب للهدف المرجو والمعلوم. يقع الأول فى إقليم (goldonstum) باسكتلندا، والثانى فى بلدة ساليم (Salem)، والثالث فى أنا ريتا (Anarryta) باليونان، وسقط فى شباكه العملاء الذين مافتئوا مخلصين يعملون وهم الخبراء والمدراء لدى الحكومات لتكوين حكومة عالمية من (الجوييم) تهيمن على مشكلات العالم برمته ابتغاء الغاية التى تغيوها وأضحت ديدنا لهم ونبراسا. وفى مؤتمر الحاخامات من أحبار اليهود المعقود فى بودابست فى غضون عام ١٩٥١، وبعد أن لطخوا أيديهم بالدم المهراق فى الحرب العالمية الثانية أخذوا يعدون العدة ويهيئون الوسائل «للحرب العالمية الثالثة»؟!، وكان منهجهم الذى نفثوه وأذاعوه فى ذلك المؤتمر ما نصه: (وسنضرب بعض الأمم بمدافع بعض، لتشرف إسرائيل على قضايا الشعوب الباغية، وهذه هى معركتنا الأخيرة مع (الجوييم)، وبعدها سيصبح كل يهودى سيدا وماعداه عبدا)، وبهذه - المثابة - تنضوى الشعوب المقهورة تحت جناح إسرائيل الكبرى .

ولقد امتدت دعوتهم من لبنان إلى سوريا وهبطوا مصر حتى وضعت الدولة يدها على بعض مخططاتهم فى عام ١٩٥٥، ولقد أصدر «إسحاق بن زيفى» الرئيس السابق لإسرائيل كتابا أسماه «الدونمة» صدر عام ١٩٥٠ قال فيه: (إن يهودا كثيرين.. وكثيرين جدا يعيشون بين الشعوب بطبيعتين، إحداهما ظاهرة، وهى اعتناق دين الشعب الذى يعيشون بين ظهرانيه اعتناقا جماعيا، والثانية باطنة وهى اخلاص عميق لليهودية وقد أسماهم بنى زيفى «طائفة مسلمة يهودية»)؟!.

وها هوذا - الجنرال الأسبانى «كانو لوبيز» يقف فى البرلمان الأسبانى (الكورتس) ليقول: منذ عام ١٩٢٥ طوت الماسونية تحت لوائها العديد من ضباط الجيش فى الاتحاد العسكرى الأخوى (الذى أقاموه) حتى زكا عوده، وأصبح بشرا سويا، وأقسموا جميعا والحديث للجنرال المذكور - بطاعة رئيسهم طاعة عمياء ليس لها حدود وبأن سلطته تسمو على أية سلطة عداها مهما علت أو سمقت.

ومنذ عام ١٩٣٠ يمموا وجوههم واهتماماتهم لتوثيق دكتاتورية عمياء مستبدة للقضاء على الكنيسة المسيحية، ولم يتوقف تآمرهم على قتل الأبرياء من الأحياء بل تعداه إلى التمثيل

بجثث الموتى حتى إنه فى غضون شهر يوليو ١٩٣٦ تم إخراج أجداث الراهبات من قبورهن وتعليقها على حوائط الأديرة وعليها لوحات تحمل عبارات غاية فى القحة والبذاءة.

ولقد أثبتت الإحصائيات على أنه ما بين عامى ١٩٣٦، ١٩٣٧ قتل على أيديهم ما يقرب من خمسين ألفا من البشر فى برشلونة، وما يربو على الثلاثين فى فالينسيا، وأبادوا عُشر سكان مدينة مدريد من أجل تنفيذ مخططهم الشيطانى النورانى الماسونى، ولا ينسى التاريخ ما فعلوه مع « هتلر» إذ صوروه بصورة المعتدى بعد تدبير مؤامرة خاصة بمشكلة ممر دانزنج ولم يكن هلتر يطلب إلا رفع الظلم الذى أوقعته معاهدة فرساى على ألمانيا فالمناطق التى اقتطعت منها كانت تابعة لألمانيا ولم يقدم هتلر على الحرب إلا بعد أن أستجار شعبها به من العدوان الشيوعى عليها .. يقول «جاى جار كار»: «هذه هى الحقيقة التى ينكرها الجميع».

لقد استطاعت الماسونية أن تضم بين جنباتها فضلا عن زعماء الغرب مثل تشمبرلن، والملكة «فيكتوريا» ومن الشرق «جمال الدين الأفغانى»، و «الإمام محمد عبده» وغيرهما ظنا منهما أن الماسونية رسالة سامية تدعو إلى الوئام والسلام، وإن كان الأول قد انسل منها خارجا بعد أن كشف الستر عن خافى مراميها، ولعل من المفيد أن نختم هذا المقال بما يؤكد هوية هذا المخطط الجهنمى بما هو ظاهر على العملة الأمريكية (الدولار) إذ تمثل رموزه نفس رموز الماسونية العالمية وعملائها الذين يعتبرون البشر مجرد قطع وأحجار على رقعة شطرنج تغطى وجه البسيطة وأسقطوا منها تاريخ وثيقة الاستقلال الأمريكى؟! وكان قمينا بهم أن يفعلوا ذلك.

جدير بنا وبكل شعوب الأرض أن نحذر وأن ننتبه إلى ما يحيق بنا من شر الماسونية الذى كان ولم يزل يطل برأسه يوما بعد يوم.. فلعل وعسى؟!.. فلقد شكلت الماسونية روافد لها فى جميع الأنحاء والأرجاء تمثل نهرا بل بحرا يغرق العالم فى لجته منتهيا به إلى الموت الزؤام.. وكما يحدث فى مصر الآن من إحن ومحن و اختلافات واضطرابات وفتنة طائفية ومطالبات فئوية.. هل يكون مرد هذا من فعل الماسونية العالمية لتدمير الأمة المصرية؟! بل والشعوب العربية..

ولقد صدق الشاعر الذى قال:

نرى خلل الرماد وميض النار ويوشك أن يكون له ضرام

خواطر «قاض» .. ردا على خواطر «مؤرخ» !.

لا مشاحة فى أن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال.. فى باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق.

ويردف العلامة ابن خلدون قائلا: إن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها، خلطها المتطفلون بدسائس من الباطل أوهموا فيها أو اتبعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم وابتدعوها وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل، وترف التنقيح فى الغالب كليل».

ولقد اختلف العلماء فى تفسير معنى التاريخ على نحو ما ذكره صاحب كتاب «المدخل إلى علم التاريخ» بين ما يراه «السيوطى» هو ربط الأحداث بالزمن.. أو هو وضع علامات على مسيرة الزمن لتحديد وقت وقوع الأحداث، وبين من يراه نظرية المعرفة تلقى ضوءا على حقيقة هاتيك الأحداث، وثمة نفر آخر «السخاوى» يذهب إلى أنه العلم الذى يهتم بالنشأة والميلاد والتطور عبر الزمن، أما «كولن جود» فيقول: «إن علم التاريخ هو نوع من أنواع البحث العلمى بهدف الكشف عن جهود الإنسان فى الماضى معتمدا فى ذلك على تفسير الوثائق».

ومن أوجز وأشمل ما قرأناه فى هذا الخصوص هو ما قاله «الأستاذ العقاد» عن التاريخ «التاريخ هو عرض الإنسانية».

ومن هنا فإن المؤرخ أو حتى الهاوى للتاريخ يجب أن يتوخى الدقة فيما يكتب يستبطن ما قد يظهر ويستظهر ما قد يبطن، نأيا بنفسه عن الجموح والجنوح بخطأ يشغب به على القواعد المقررة، بما يغشى به أفكار العامة، أو بما يمس به، أعراضا فى يومها الحاضر، أو فى أمسها القريب، أو فى غدها الموشك، ويقع الناس صرعى الأوهام والخيالات، وكم من الناس قد اعتمد على الخيال وأقام به الرواسى من الجبال.

نقـول هذا بمناسـبة ما كتبه الأسـتاذ الدكتـور عبد العظيم رمضـان.. وتحت عنوان: «الأسـتاذ العقاد لم يكن ملاكا» والمنشـور بجريدة الجمهورية فى ٢٩/ ٧/ ٢٠٠١، إذ قال: «إنـه يعجبه كثيرا البرنامج التليفزيونى الذى تقدمه السـيدة جميلـة إسماعيل على القناة الأولى فى التليفزيون المصرى الذى يختبر معلومات الشعب المصرى عن الشخصيات المصرية المشهورة وتقدم فيه فى النهاية للفائز هدية على الطريقة القرداحية «جورج قرداحى» أكثر تواضعا قد لا تتجاوز صينية بسبوسة أو كنافة ولقد تركزت الحلقة الأخيرة من تلك البرنامج على شخصية «محمود عباس العقاد» كذا! الذى كانت تدور حوله هذه الحلقة التى ركزت على سـجن العقاد بسـبب عيبه فى الذات الملكية وتقصد الحلقة بذلك عندما وقف العقاد فـى مجلس النـواب يوم ١٧ يونيه ١٩٣٠ بعد أن أعلن رئيـس الحكومة مصطفى النحاس باشا استقالته بسبب عجزه عن تقديم مشروع محاكمة الوزراء فألقى العقاد عبارته الشهيرة «ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى سبيل صيانة الدسـتور وحمايته».. فلو قدمت المذيعة حياة العقاد كاملة لعرفت أنه بعد سـبع سـنوات فقط انقلب على هذا الموقف وعلى الحياة البرلمانية وعلى الدستور ووقف يساند الملك فاروق فى أخطر معركة دسـتورية شـهدتها البلاد وأخذ يجند كل ما يملك من قوة منطق وبلاغة حجة فى الدفاع عن (حقوق الملك)، ضد (حقوق الشـعب)!.. فقد زعم فى إحدى مقالاته أن الضمان الوحيد للحقوق الدسـتورية فى أيدى الملك الكريم حرسـه الله! ذلك هو الضمان الـذى لا خطر فيه على أحد بل فيـه الوقاية من جميع الأخطار، إنه الضمان الذى يفديه المصريون بأرواحهم وأموالهم فيفدون أنفسهم ويفدون بلادهم!.. وفى مقال أخر ادعى العقاد أن حقوق الملك هى حقوق الأمة! تغار عليها كما تغار على أعز الحقوق الدسـتورية لتوطيد الأمور وحماية الناس من أغلاط الوزارات على توالى القيام والسقوط، وأضاف: «هنا يتجلى لنـا أن الأمة تحمى الملك لأنه يحميها! وتضمـن حق الملك لأنه يضمنها وترفع حق الملك على حقوق أخرى لأنه الحق الباقى لها على تعاقد العهود وتتابع الأحزاب واختلاف الميول والأحوال».. وواضح هنا أن العقاد انقلب على موقفه انقلابا تاما وبـ ١٨٠ درجة! ومن هنا فالمطلوب دائما لإنصاف التاريخ تقديم صورة الشخصية للناس بما لها وما عليها مع تفسير المواقف وليس تبريرها! بدلا من تقديمها فى صورة ملائكة لا يخطئون ولا يزلون! فالأستاذ العقاد كان أستاذا (ولكنه لم يكن ملاكا)!.

هذه خلاصة ما كتبه الأستاذ الدكتور «رمضان» قد جاء على شاكلة خلاصة المحاكمات فى قضايا الجنايات أشبه بعنوان كتاب «سرمرست موم» فى كتابه «SUMMING UP».

ولما كان ذلك، وكنا نؤمن بآبدة والآبدة هى جمع آوابد وهى الكلمة التى تذهب فى أسماع الزمن مذهب الخلود. يقول: «على بن أبى طالب – كرم الله وجهه –» الساكت أخو الراضى» ومن ثم، وأخذا بمذهب الإمام على، فإننا نوجز القول، ردا على الأستاذ الدكتور، فنقول: «إنه قد سبق وأن تطاول المتطاولون على الأستاذ العقاد بمثل ما ذكره الدكتور رمضان ومنهم الأستاذ سلامة موسى، والأستاذ فتحى رضوان ،إذ رماه الأول بأنه – أى الأستاذ العقاد – هو والدكتور طه حسين، والدكتور هيكل – كانوا من «الكتاب الملوكيين»، وذلك لسبق مدحهم للملك فاروق ملك مصر السابق.. وتكفل الأستاذ بالرد على الأول إبان حياته ففند مزاعمه، وأورد فى رده سبق مدح الأستاذ سلامة موسى نفسه للملك فاروق.. وأما الثانى فلم يكن العقاد على قيد الحياة لكى يجهض رأيه ذاك، ومما قاله الأستاذ العقاد ردا على هذه الشائعة ما دبجته يراعته «أما فاروق فقد لعنا أباه حرفيا.. وهل سمع أحد أننا زحفنا على بطوننا إلى عرشه يوم كان له عرش تزحف إليه البطون ممن تعلمون ولا تعلمون؟، إنه على هيامه بذكرى أبيه فقد تقرب إلينا ولم نتقرب إليه، وسألنا أن نستقيله فى بعض المناسبات يوم كان الناس جميعا يمدحونه ولم يكن أحد يعيبه سرا ولا علانية، فقدمنا له النصح فى قالب المدح ووصفناه بما ينبغى أن يتصف به من الحرص على الرعية وصيانة الإستقلال والحرية، ولم نطلب أن نلقاه إلا وقد كان هو قبل ذلك طالب اللقاء.

وهذه سجلات القصر محفوظة يرجع إليها من يشاء، وفى هذا يقول الأستاذ المحقق سامح كريم أن موقف العقاد من الملك السابق فاروق يتضح من هذه العبارة الصغيرة وكذا موقفه من أبيه الملك فؤاد الذى كان يرى أنه لابد – أى العقاد – أن يكون: كبرناردشو» الذى دعى لزيارة الملك «جورج» فأجاب: بأنه يكون سعيدا إذا زاره الملك فى بيته، لا أن يكون كالمتنبى.. الذى كان العقاد يستصغر عظمته، تلك التى تخنقها تبعيته للأمراء وإن كانت هذه التبعية للعيش الرغيد المألوف فى عصر المتنبى..

ومن الثابت أن الأستاذ العقاد قد دعى لإلقاء قصيدة فى حفل ملكى أقيم بالصحراء الغربية بوصفه عضو البرلمان النائب عن هذه الدائرة وألقى القصيدة وكان تعليق الملك السابق فاروق عليها – موجها كلامه للأستاذ العقاد – لماذا لم تكن تقول هذا الكلام فى عهد أبى الملك فؤاد؟ فكان رد العقاد على هذا التعليق الملكى أنه قد خرج على التقاليد الملكية..

وشـق الصفـوف منصرفا عن الحفل قبـل أن ينصرف عنه الملك.. بل وغـادر المنطقة كلها إلى القاهرة.

ويبقى السؤال الذى أورده الأستاذ كريم، يزداد حدة وعنفا أو تزيدا وتجاوزا حين يطلقه فتحى رضوان كالرصاص على العقاد وقد أصبح جثة هامدة ،، لماذا كان يمدح العقاد فاروقا؟ – ونسـج على عنوان ذلك – الكاتب الناقد الأسـتاذ رجاء النقاش، والحقيقة التاريخية تنهض بجلاء من خلال تاريخ مصر السياسى لتقول: إن ثمة معركة حامية كانت قد نشبت بين العقاد والوفد إثر خروج الوفد عن خط زعيمه سـعد زغلول، متبعة فيما ذكره المؤرخون لتلك الفترة سياسة الرجل الفرد أو الحكم الدكتاتورى، وكان من أبرز مظاهرها تكوين فرق القمصـان الـزرق لتكون يده التـى يبطش بها لكل مخالفيه، وعاثت تلك الفئة فسـادا فى البلاد، وضاق بها العباد الذين شـكوا، فما أصغت الوزارة إلى شـكواهم ومازال الأمر يتفاقم حتـى لجـأ الناس إلى الملك ليدلى فى هذه الحالة بدلـوه وكان النحاس يرفض تدخل الملك محتميا بالدسـتور ووقف الملك مكتوف اليدين، وهنا ظهر العقاد أو «هرقل» كما أطلق عليه الدكتـور «لويس عوض» وأعلنها صيحة مدوية من أجل إصلاح الوضع الخاطئ.. ومما قاله الأسـتاذ العقاد آنذاك» إن قيام القمصان الرزق لا يخالف الدسـتور وحسب بل هو يخالف الديمقراطية فى صميمها وهى شئ أعم من الدستور وأولى منه بالغيرة والصيانة.. ومتى كان حق الوزارة أن تحكم على الطريقة الدكتاتورية وهى لم تتسـلم الحكم إلا على اعتبار واحد وهـو أنها وزارة ديمقراطية؟.. وهل فى الدنيا أعجب مـن قيام وزراء دكتاتوريين فى عهد ملك دستورى؟ ثم أردف العقاد قائلا من حق صاحب الجلالة أن يشير بيده فى هذه المسألة لأنـه قائد الجيش الأعلى فيحق له أن يصون سمعة الجيش وأن يمنع قيام هيئة عسـكرية غير الهيئة التى هو قائدها وحافظ نظامها .. وقد تساءل سائل بحق أين كان فتحى رضوان عـام ١٩٥٤ يـوم أن قال العقاد: أما فاروق فقد لعنا أياه.. على النحو المذكور أنفا، لماذا لم يرد رضوان آنذاك على العقاد؟.

وقد كانت الفترة التى كتب فيها الأسـتاذ العقاد ماكتب فى وقت كان الناس يتطلعون مشوقين لتولى الملك فاروق سلطته الدستورية ذلك لأنهم رأوا فى الملك الشاب من يمن الطالع مـا جعلهم ينظرون للمسـتقبل بعين ملؤها الأمل والرحمة وقـد أحاطوه بعاطفة، وكما عبر الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «مذكرات فى السياسة المصرية» ص ٣٥٤ بعاطفة من

الحب الصادق لما نجم عن هذا الشـاب من براءة وطهر ومن الرجاء الخالص لله أن يجعل عهده عهد حرية وسعادة للمصريين جميعا، راجع الدكتور عبد العزيز شرف، عصر العقاد ص ٣٢٨ فيما أثبته بخصوص خروج الأستاذ العقاد عن الوفد.

ولعل من المفيد أن نذكر كيف كان موقف الأسـتاذ العقاد من الرئيس جمال عبد الناصر الـذى رأى فيه حاكما مطلقا ويرى أن اختياره لرجاله ليس اختيارا للموهبة أو الكفاءة إنما هو يختار الذى يريحه، أو الذى ينحنى له، ويذكر الأستاذ أنيس منصور فى هذا الخصوص فى كتابه غير المسبوق «فى صالون العقاد كانت لنا أيام» أن الأستاذ العقاد بعد حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب فى سـنة ١٩٦٠ أرسل له الكلمة التى سوف يلقيها أمام الرئيس جمال عبد الناصر لكى يعيد كتابتها على الآلة الكاتبة فقرأها وانزعج فلم يجد بها كلمة واحدة عن الرئيس جمال عبد الناصر أو حتى عن الثورة لا فى أولها ولا فى أخرها؟!، وشاطره هذا الإنزعاج المرحوم الأستاذ «كامل الشناوى».

وإن ننسى لا ننسى ما كتبه الأستاذ رجاء النقاش مهاجما الأستاذ العقاد فى هذه الفترة متهما إياه بأنه الكاتب الوحيد الذى لم يكتب حرفا واحدا عن ثورة ٢٣ يوليو، انظر أيها القارئ العزيز، ماذا كان رد الأستاذ العقاد عليه؟ – وأنا هنا أنقل من الذاكرة – قال الأستاذ العقاد له: «إن الثورة التى تعتمد فى تأييدها على كاتب مثلك لهى أضعف الثورات؟!.

ثم هل لنا أن نتسـاءل ونوجه سـؤالنا للأسـتاذ الدكتور عبد العظيم رمضان الذى نكن لـه المودة والتوقير – وهو يعرف ذلك سـلفا – أين كنت يـا دكتور عبد العظيم إبان الحكم الدكتاتـورى للرئيس جمال عبد الناصر، كما أسميته أنت؟.. ولماذا لم نقرأ لك كلمة واحدة عن نقدك له أو لسياسـته على النحو الذى سـودت به الصفحات الطوال عنه ناقدا ومحللا ومفسرا ومهاجما له، فى جميع ما كتبته عنه؟ قد تقول أنك لم تمدح ولكن الجميع يقولون أنك قدحت.. وبعد موت عبد الناصر؟!.. أين كنت إذن يا دكتور؟!.

قمين بنا إذن أن نعطى لكل إنسان حقه بعد البحث والدرس والفحص والتمحيص، فيما قد يُلغط به من بعض الشانئين عن زعمائنا وعلمائنا وأدبائنا الذين يفنون أعمارهم فى خدمة البلاد، فى أكثر الأحايين بغير دليل يكفى لإدانة متهم فى قضية مخالفة – على حد تعبير أسـتاذنا العقاد.. فضلا عن أبناء الوطن المخلصين؟.. فهناك الإشـاعات التى تذاع وتشـاع حقدا وغلا وافتئاتا على كرامة الخلصاء والشـرفاء، وهم منها براء يسـقط كذبهم من الأقلام

ويسرى بهتانهم على الأفواه بغير دليل. أو قد يجيئها الدليل «المختلق» من صنع أصحاب المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب. وهم يدافعون عن أنفسهم باتهام الأخرين، ويقينا فإن الدكتور عبد العظيم رمضان «المؤرخ القدير» ليس قطعا من بين هؤلاء؟!.

من نافلة القول إذن أن نقول إن الأستاذ العقاد كان من أهم ما يميزه مواقفه الثابتة فى الحياة. فهو يقف كما عبر العلامة الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الأدب العربى المعاصر.. يقف دائما عند رأيه ويثبت ثباتا وكأنه حصن من حصونه. يعيش فيه ويعيش له، ويذود عنه ذود العربى الأصيل عن عرضه ويروعك عنده دائما نصب عينيه لا تغيب بل هى دائما النبع الروحى لأحاسيسه ومشاعره بكل ما تموج به من أحداث سياسية وكل ما تزهى به من أمجاد ماضية.

صدقت يا أستاذنا الكبير عباس العقاد رحمة الله عليك فيما قلته فى قصتك «سارة» «ذو الوجهين منافق وذو الوجه الواحد ميت».

ولقد مت فى نظر شانئيك.. ولكنك حى خالد فى عيون عارفى فضلك ومحبيك.

❑❑❑

المتاحف.. ذاكرة الشعوب ..

وهى بلا شك كذلك. فالشعوب التى لا متاحف لها أشبه بإنسان بلا ذاكرة. يعيش وكأنه قد أصيب بمرض الزهايمر .. المرض الذى إذا أصاب أحدا ابتهل إلى الله أن يفارق الحياة!.

ورسالة المتاحف رسالة بالغة الأهمية فهى تقوم على تحويل مبان تقبع فيها المقتنيات إلى تراث يقطن فيه الأحياء، وذلك من أجل ترسيخ روح الانتماء وتعميق الهوية الحضارية.

ومنذ عهد ضارب فى القدم أنشأ الإنسان المتاحف، كيف ذلك؟ قد سجل الإنسان الأول تاريخه على الأثار التى خلفها والتى كانت مطموره تحت الثرى لا تقع عليها الأعين ومن ثم أطلق عليها الأثريون اسم «الخبيئة» من خلال رسوم وإشارات تحولت مع تقدم البشرية إلى كتابات تحقق العنصر الحى لفعل «الحْكَى»، وبفك ألغازها، واستنكاه رموزها تحولت طلاسمها إلى شخوص حية تحقق العنصر المركزى «لفعل الحكى» من خلال لغة مقروءة تنطق بماضى الشعوب وما مر بها من أحداث، ومن ثم ترى فيها المدح والقدح مثلما حدث مع نبى التوحيد فى مصر القديمة «إخناتون» وغيره من فراعنة مصر.

تمثل الأهرامات متحفا جليلا مهيبا وإن كان الشاعر الفحل «المتنبى» قد خرج من مصر ساخطا على «كافور الإخشيدى» فوصف الهرمين بقولته:

أين الذى الهرمان من بنيانه من قومه؟ من يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن سكانها حينا، ويدركها الفناء، فتتبع؟

وإليك ما قاله «عمارة اليمنى» فى عصر الفاطمى عن الهرمين نفسيهما فصور مناعتهما أمام الدهر:

بناء يخاف الدهر منه، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها ولم يتنزه فى المواد بها فكرى

بيد أن الأهرامات كانت بمثابة المتاحف المفتوحة، أم الخبيئات فقد أضحت محل أبحاث ودراسات العلماء من شتى أنحاء الأرض وأضحت كل خبيئة كنزا رائعا للرائين أو الزائرين.

وقد انبهر العالم بما اكتشفه «كارتر» من مقبرة «توت عنخ آمون» وما حوته فى داخلها من مدونات تقص عليك جزءا هاما من تاريخ مصر القديم.

وعندما عملت وكيلا لنيابة الأقصر ونيابة أرمنت جست خلال الديار وشهدت المتحف العالمى للآثار فى البر الغربى للأقصر.. وكذلك معبدى الكرنك والأقصر مرات ومرات، بدا لى جليا قيمة المتاحف وأثرها البالغ فى تثقيف الشعوب، وكنت أشاهد الآلاف الذين يتقاطرون على هذه المتاحف لإستقراء تاريخ مصرالقديمة وحضارتها السامقة التى جاءت لنا حسب الجدول الذى خلفه لنا المؤرخ «مانيثون Manetho».

والذى تحصل فى عصور ما قبل التاريخ والدولة القديمة والوسطى وعصر الهكسوس والدولة الحديثة والعصر المتأخر والعصران الفارسى وما بعده حتى وصلت مصر بعصورها إلى عصر البطالمة والعصر الرومانى ثم البيزنطى فالقبطى فالفتح العربى لمصر عام ٦٤٠ بعد الميلاد.

وقد أفصحت لنا خبيئات قدماء المصريين عن استعمال قدماء المصريين لكتابتين متبيانتين إحداهما لغة العلم والأدب والأخرى اللغة الدارجة، وكذلك نوعين من الخطوط، أحدهما زخرفى وهو الخط الهيروغليفى والآخر هو الهيراطيقى كما أنه كان هناك الخط المبسط الهيراطيقى وإذ نجح جان فرنسوا شمبليون «Jean François Champollion» فى حل رموز الكتابة المصرية القديمة فقط تكشفت لنا تلك الخبيئات بما كتب فيها المدوينات وما كنا سنعلم ذلك إلا عن طريق هذه المتاحف المخبوئة المطمورة تحت التراب.

من تكرار القول أن نقول إن تلك الخبيئات وهذه المتاحف هى المعلم للشعوب قاطبة وقد انتشرت فى ربوع العالم فمن متحف المرأة الوطنى للفنون فى واشنطن، ومتحف بيكاسو، ومتحف اللوفر فى باريس، إلى متحف مدام توسو بلندن، متحف المتروبوليتان إلى المتحف المصرى فى مدينة القاهرة، والمتحف القبطى، والمتحف الإسلامى.

وهكذا أصبحت المتاحف هى همزة الوصل بين الجديد والقديم، وشكلت البنية السردية للخطاب الذى يشكل ثلاثة مكونات هى: الراوى، والمروى، والمروى له بما قصته علينا من قصص التاريخ وسردته لنا من أحداث جسام، والسردية «Narratology» أو علم السرد فرع من أصل كبير هو الشعرية (Poetics) كما عبر الدكتور «مقدادى» فى كتابه «البنى الحكائية».

قمين بنا أن ننمى فن المتاحف فى نفوس الشباب فلقد أصبح الفن المتحفى من الفنون الحديثة التى تحرص عليها دول العالم.

ذكرى.. مصطفى النحاس.. سيد الناس؟!

يقيس «توماس كارليل» – فى كتابه «الأبطال وعبادة البطولة – Heroes and Hero worship» العظمة، لا بمولد الإنسان وطبقته، وإنما بموهبته وعطائه للجموع.. وقد نسب إشراقات الحضارة لعبقرية الأفراد العظماء..

وأكد أن دراسة التاريخ عنده هى دراسة تفوق وعظمة أبطاله وعظمائه وعبادتهم، وقد حلل عناصر العظمة والبطولة فردها إلى ثلاثة : الإيمان بأن البطل قد اختاره الله، والإيمان بالجبرية التى يعبر عنها البطل فى رسالته، وتحليه بشجاعة غير عادية.. وقد انتقد كارليل فكرة أن البطل ابن عصره، والتى ينادى بها أصحاب المذهب الاجتماعى فى تفسير التاريخ، وقد ذكر أن عصورا كثيرة صرخت تنادى مطالبة بالعظماء فما وجدتهم.

وقيض الله لمصر بعد وفاة زعيمها سعد زغلول.. رجلها مصطفى النحاس.

ولقد فزع الإحتلال الإنجليزى وزبانيته عندما علموا أن الوفد المصرى قد ضربوا صفحا عن اختيار ابن شقيقة سعد.. «محمد فتح الله بركات باشا» رئيسا للوفد المصرى بعد وفاة الزعيم «سعد زغلول» فلقد اختاروا «مصطفى النحاس» زعيما لهم.. وحاول الإنجليز والسراى محاولة جاهدة بإقصاء مصطفى النحاس عن زعامة الوفد.. فلم يفلحوا وباءوا بالخسران المبين وذلك لمعرفتهم بوطنيته ونزاهته وقوة شكيمته.. ويؤكد ذلك أنهم قد نفوه من قبل مع الزعيم سعد زغلول إلى عدن ثم إلى جزيرة سيشل.

وعندما مات سعد زغلول كتبت جريدة البلاغ تقول: بغير هذا النبأ أعدت الأسماع وبغير هذه الصيحة جرت الألسنة فبالحياة اقترن سعد فما سمعناه إلا والحياة له لزام، والدعاء له صلاة..

فكيف من الممكن أن يتصور أحد مهما كان حماسه للنحاس أن الملايين التى اعتادت وأحبت أن تهتف «يحيا سعد» بدمائها.. أن تتحول إلى «يحيا النحاس»؟!.

ولقد تحول الملايين من شعب مصر إلى الهتاف بحياة النحاس.. سيد الناس، كما أسماه الزعيم سعد زغلول. وقد قيل إن الملك فاروق كان يبكى من الإهانة لشعوره بأن الصحف اهتموا بالنحاس أكثر من اهتمامها بالملك. وخرجت الألوف تهتف له (الشعب مع النحاس) فأخرج على ماهر الجموع من الإخوان المسلمين وهى تهتف: (الله مع الملك)؟!.

قبل أن يتبوأ كرسى الزعامة وكان يترافع – آنذاك – عن أحمد ماهر والنقراشى فى قضية مقتل «السيرلى استاك» وقف فى قاعة المحكمة وهو يرفع عقيرته فى وجه القضاة وقائلا لهم: إنى أتهم علنا وفى مجلس القضاء، (النيابة العامة) بالاشتراك مع رجال (السلطات) فى التدبير لإغتيال ماهر والنقراشى.. اكتبوا هذا عنى، وأنشروه على الملأ.. ويذكر الدكتور رفعت السعيد أن الناس جميعا كانت تعلم أن كلمة السلطات تعنى دار المندوب السامى البريطانى.

عندما كون أحمد حسين – الذى قال له النحاس «أنت دسيسة وإن الأمة لا ترحم الخوارج» – جماعة القمصان الخضر واستخدمها فى ترويع الوفديين وإيمانا من النحاس بإنه لا يفل الحديد إلا الحديد كون جماعة القمصان الزرقاء التى بثت الرعب فى قلوب القصر والإنجليز.. وحاول شانؤه الانتقام منه فأوعزوا لمن يُدعى عز الدين عبد القادر، بإطلاق أربع رصاصات على سيارته بيد أن الله قد كتب له النجاة. واعترف الجانى بأنه أحد أعضاء حزب مصر الفتاة، وحاولوا مرة أخرى تدبير مؤامرة لاغتياله بتفجير قنبلة وضعت فى محرك سيارة أسفل بيته ولما فجروها انطلق المحرك من السيارة إلى نافذة الحجرة التى كان ينام فيها النحاس .. مستقرا تحت سريره؟!.

ورفض النحاس إلباس حفل تنصيب الملك لباسا دينيا عندما اقترح الأمير محمد على (ولى العهد) بأن يتم تنصيب الملك فى احتفال دينى رفض ذلك رفضا قاطعا قائلا: إن الإسلام لا يعرف سلطة روحية وليس بعد الرسول وساطة بين الله وبين العباد، وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام الإسلام وتنزيه الإسلام.. حاربوه وناصبوه العداء ووصفه خصومه بالنصاب المرتشى وأنه صاحب كرامة الأوحال، وأمانة المحتال وصيانة دستور الدجال فلم يلق بالا إليهم واستمر فى طريقه نحو بناء الوطن وإعلاء كلمته وفرض عزته وبسط كرامته على كل من تسول له نفسه الإعتداء عليه.

اهتبل النحاس فرصة فرض الوصاية على العرش فأصدر القانون رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٧ الخاص بإنشاء المجلس الدفاع الأعلى بعد أن قنن فيه النحاس تجريد الملك من أية سلطة إشرافية على الجيش ومنحها لرئيس الوزراء وألغى بجرة قلم منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو المنصب الذى كان يتولاه الملك عادة.

وإبان رئاسته لوزارته الثالثة سعى سعيا حثيثا إلى بناء ركيزة فى الجيش باعتبار أن الجيش هو رمز الحركة الوطنية وأدخل سلسلة من الإصلاحات داخله مما استحوذ على

إعجـــاب غالبيـــة الضباط مما أثار القيادة البريطانية فســـعت لدى القصـــر والذى رأى فى استمراره فى منصبه تكريسا للنفوذ الوفدى بالجيش فأقاله الملك فى نهاية أغسطس ١٩٣٩ .. كما توسعت حكومته بمقتضى المعاهدة التى وقعها مع الإنجليز فى القبول بالكلية الحربية ففتحت أبوابها لأبناء الطبقة المتوسطة والتى كانت بحكم أصولها الاجتماعية تنتمى لقاعدة شـــعبية عريضـــة، وكان من أثر ذلك خروج الجيش المصرى مـــن عزلته الاجتماعية وكذلك تقعره السياســـى وهذا كما – قال المؤرخـــون – أرخى عودا لنبت الاتجاهات الوطنية بين الصفوف وكان (لُحمة) سياســـة النحاس السياســـية هى خلق رأى عام يعمل لصالح جيش مصر فى الخارج، أما (سُداها) فكان محاصرة النفوذ الملكى بين المطرقة والسندان.. (مطرقة) الوفد (وسندان) الشعب.. كما ساهم النحاس مساهمة فعالة فى إنشاء جامعة الدول العربية التى وقع ميثاقها بســـراى الزعفران بالقاهرة فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ وكان له اليد الطولى فى إنشائها والقدح المعلى فى خروجها إلى الحياة.

عندمـــا ألـــف النحاس وزارته ١٩٥٠ وأراد أن يعين الدكتور طه حســـين وزيرا للمعارف وكان الدكتور طه حســـين قد صنف فى صفوف اليســـاريين ونصحه حسين سرى باشا بعدم اختياره كوزير.. بالإضافة إلى ما ســـبق من كونه يســـاريا فهو من المغضوبين عليه من الملك، فأصـــر مصطفى النحاس على تعيينه وزيـــرا للمعارف العمومية وعين بالفعل على غير رغبة الملك فاروق وكان تعيينه فى الوزارة النحاســـية خـــيرا وبركة على مصر.. إذ نهض التعليم علـــى يـــده وأصبح غداة تعيينه (كالماء والهواء) وما فتـــىء الدكتور طه يعمل على جعل هذا المبدأ دستورا للتعليم فى مصر.

عقد معاهدة ٣٦ مع المحتل الإنجليزى الذى اعترف فيها باستقلال مصر، وألغاها فى أكتوبر ١٩٥١ قائلا قولته الشـــهيرة وهو يوجه حدثيه إلى أعضاء مجلس النواب. من أجل مصر وقعت معاهدة ٣٦ ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها.. ثم اجتمع البرلمان بمجلسيه مســـاء ٨ أكتوبر وأعلن فيه رئيس الوزراء قطـــع المفاوضات بين مصر وإنجلترا بعد أن تبين عـــدم جدواها وألغى معاهدة ٢٦ أغســـطس ١٩٣٦، وكذلـــك الاتفاقيتين اللتين ألمعنا إليهما الخاصتين بمسألة السودان بالإضافة إلى مرسوم بمشروع قانون بتعديل الدستور يجعل لقب الملك ملك مصر والســـودان ووافق البرلمان على ذلك بالقانون رقم ١٧٥ لســـنة ١٩٥١، وكان ذلك فى ١٥ أكتوبر عام ١٩٥١.. ودعا مصطفى النحاس شـــعب مصر إلى الكفاح المسلح ضد

الإنجليز فى قاعدة قناة السويس التى تحولت إلى مقبرة للإنجليز وكان الفدائيون يصلون الجنود المحتلين.نارا حامية أقضت مضجعهم وأشعرتهم بأن وجودهم فى مصر هو الموت الزؤام مما دفع المخابرات البريطانية إلى إقامة معسكر فى ضفة القناة (كسفريت) واستقدمت إليه بعض الخارجين عن القانون من المحترفين المدربين على الإتلاف والتخريب.

ولن ينسى التاريخ لمصطفى النحاس أنه أول من حذر من احتمال إنشاء دولة إسرائيل على حدود مصر الشرقية مصرا على أن تكون قرية أم الرشراش جزءا من أرض مصر وحتى لا يكون لإسرائيل من قدم فى البحر الأحمر واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٥٦ حيث سلبت أم الرشراش (ميناء إيلات الإسرائيلى) من تراب مصر بعد العدوان الثلاثى الشهير على البلاد.

وعلى امتداد تاريخ الوزارات المصرية المتعاقبة منذ ولادتها فى أغسطس ١٨٧٨ وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لم يتول رجل رئاسة مجلس الوزراء بالقدر الذى تولاها مصطفى النحاس (٧ مرات).. وعلى امتداد نفس الفترة حدت خمس إقالات لرؤساء الوزراء اختص النحاس منها بمرات أربع ؟! ولن ينسى التاريخ أيضا أنه وبعد أن ألغيت الإمتيازات الأجنبية استصدر مجلس الوزراء برئاسة النحاس قوانين وتشريعات المحاكم المختلطة، وكذلك اختصاصات المحاكم الشرعية.

ولن ينسى التاريخ أن النحاس قد وجه جُل اهتمامه إلى السودان وقال قولته الشهيرة: تقطع يدى ولاتقطع السودان عن مصر وكذلك أصبح ملك مصر فى عهده هو ملك مصر والسودان.

وفى غضون عام ١٩٦٥ انتقلت روح النحاس إلى بارئها بعد حياة حافلة من العطاء لمصر وكانت جنازته التى شاهدها كاتب هذه السطور .. حيث كان من المشيعين فيها جنازة حافلة اشترك فيها جميع طبقات الشعب من أطيافه المختلفة مودعين زعيمهم وداعا يليق بمصطفى النحاس.. سيد الناس.

❑❑❑

راسبوتين.. وشعب مصر الحزين؟!

وراسبوتين هو ذلك (الفاجر) وهذه هى ترجمة اسمه باللغة العربية الذى أحاط بروسيا إحاطة السوار بالمعصم متحكما فيها مسيطرا عليها بقبضة من حديد، وذلك قبيل الثورة البلشفية التى اندلعت عام ١٩١٧ وكان منخوب الفؤاد خؤونا ساحرا جبانا يهرف بما يعرف أو لا يعرف.

اسمه الحقيقى «غوبغورى بفيمتش» ولد بسيبيريا عام ١٨٦٩ ضمن ما قيل عنه إنه فى ريعان شبابه قد حوكم بتهمة اقترافه لجريمة سرقة، وعوقب جراء ذلك بالعمل فى خدمة إحدى الكنائس، ومن ثم توطدت أواصر الصداقة بينه وبين رجال الدين، ورويدا رويدا أسبغ عليه الكهنة صفة رجل الدين برغم فسقه وفساده، فقد كان دائما صبحه وليله يعاقر بنت الحان ولا يكف عن شربها وتجرعها ثم يتسربل بعدها بلباس الكهنوت.

ذاع صيته وانتشر اسمه من خلال ما أشيع عنه أنه كان صاحب قدرات خارقة يشع من عينيه الزرقاوين بريق عجيب غامض يثير الرهبة والفزع فى كل من يراه.

أصيب الابن الأصغر «أليكسيس نيكولايفبتش»، «ولى عهد القيصر» «نيقولا الثانى» بجرح غائر نزف من خلاله الدم الغزير إذ كان مصابا بسيلان الدم وتقعر داخل حجرته يهمى من عينيه الدمع السخين إذ وقف الأطباء أمامه حيار دون أن يفلحوا فى علاجه، فأشار بعض رجال القصر على القيصر وزوجه «ألكساندرا»، (وقد أعدما سويا عام ١٩١٧ واجتثث بإعدامهما هما وعائلتهما سلالة أسرة رومانوف) باستدعاء راسبوتين باعتباره رجل دين مبارك (ليس حسنى مبارك)! وأنه صاحب يقين ويتحلى بالروح القدس الأمين.

توجه راسبوتين يحث الخطى تجاه ولى العهد وتمكن من وقف نزيف الدم وشفى بعد ذلك من علته، فأنزله القيصر وزوجته مكانا عليا فى البلاط القيصرى حتى أمسى بين ليلة وضحاها متحكما فى ديوان القصر الإمبراطورى النساء فيه قبل الرجال إذ كان عشقه الدائم هو المرأة لا بديل سواها ولا يزيغ بصره دونها.

تحول راسبوتين بعد ذلك من خادم فى القصر إلى أن أصبح السيد المطاع كل ينعم عليه بما استطاع، فلعب دورا بالغ السوء فى أروقة الحكم بل وفى أرجاء متسعة من البلاد الروسية.

ضاق به ذرعا الأمير الروسي «فيكس لوسيبوف» فدبر له أمرا بليل فدعاه إلى الحضور على وليمة أولمها له فى قصره وقدم له من خلال صحاف أطايب طعامه شطائر من الحلوى مملوءة «بسم السيانيد القاتل» بيد أنها لم تؤثر فيه إذ كان راسبوتين قد تعود على أن يسكب فى حلقة بين الحين والحين قطرات من هذا السم الزعاف حتى يتعود عليه ويسلم من أعدائه الذين تنبأ بأنهم يتربصون به الدوائر آناء الليل وأطراف النهار وأنه حتما سيلقى مصيره على أيديهم.

عاد الأمير فقدم له نبيذا مسموما فشربه ولكنه لم يُجد معه كذلك فتيلا ولما استيأس الأمير منه أمر حاشيته فهجموا عليه هجمة ضارية وأطلقوا عليه مع من يدعى «يوسوبوى» رصاص غدارتهم مصابين إياه فى القلب والرأس وتأكدوا أنه أسلم الروح فقيدوه وأخذوه وألقوه فى نهر «نهرانيفا» بعد أن حفروا فيه حفرة ودفنوه فيها.. فبحثت السلطات عنه بعد غيابه وعدم إيابه، حتى عثروا عليه مجمدا فى قاع هذا النهر الجليدى، وإذ حللوا جثته لكى يتبينوا أسباب وفاته تبين أنه لم يمت بالرصاص، ولا بالسم وذلك بالتحليل الذى أجروه على جثته، وإنما هو قد قضى غرقا بعد تسرب الماء إلى رئتيه عن طريق تنفسه؟!!.

والسؤال الذى يثور: كم يوجد على أرض مصر مثل «راسبوتين»؟! وكم ابتليت مصر بمثله خلال عهود ظلامها التى استمرت عقودا طويلة من الزمان؟.

كثيرين هم مثل راسبوتين أحاطوا بحكامها وقد تحولقوا حولهم كالذئاب الجائعة ينهشون فى لحمها وخيراتها ثم تحولوا إلى أفاع تنفث سمومها فى قلب الوطن خلال ما كانوا يُسرون به فى آذان أولئك الحكام من كذب صراح وغش وتزوير بعد أن خربت ذممهم مستغلين، إما استبداد هؤلاء الفراعين.. أو كبر سنهم.. أو حداثة عهدهم.. أو اضمحلال ثقافتهم.. إن كانت لديهم ثقافة أصلا.. ثقافة حب الوطن والانتماء إليه؟!.

حمدا لله، فقد سطع نور الثورة المصرية المباركة فنزعت الستر عن هذه الحفنة الضالة المضلة من «الراسبوتيين» الدجالين عن خاف مساعيهم بعد أن سلبوا الحكم عقله وأماتوا قلبه فاستحقوا هم ومن انصاع لهم اللعنات وباءوا بالويلات أحقابا بعد أحقاب.

❑❑❑

رأينا فى الدستور

عندما تفضل اللواء «سامى أبو المحاسن» وكيل المخابرات العامة، والأستاذ «أحمد وجيه» مدير العلاقات الثقافية بقرية آمون بالساحل الشمالى بالإسكندرية، وكذلك الأستاذ محمود صلاح عيد المستشار بالتحكيم الدولى بدعوتنا لإلقاء محاضرة عن الدستور وأهميته.. قلت فيها: «إن القوانين قد سبقت الدساتير، وكانت هى المهدة لها مثل قانون حمورابى، وقانون الألواح الأثنى عشر، ناهيك عن قانون الامبراطور الرومانى أنطونين كراكلا، ومن قبلها قانون «تحوت» الذى أصدره الملك مينا عام ٤٢٠٠ ق. م. وقد ظهرت الدساتير فى مصر إبان حكم الخديو إسماعيل لها وكان مجلس شورى النواب أول مجلس نيابى فى تاريخ مصر بعد دستور الذى وضع لها عام ١٨٦٦ وكان دستورا مثاليا على أسس قانونية صحيحة ثم جاء من بعده دستور ١٨٨٢ فى عهد الزعيم «أحمد عرابى باشا» ومن بعده جاءت الجمعية الوطنية، فالجمعية التشريعية، فدستور ١٩٢٣، ثم دستور ١٩٣٠، وتلاهم دستور ١٩٥٤ بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وجاء من بعده دستور ١٩٥٦، ثم دستور الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨، وتلاه دستور ١٩٦٤، وفى عهد الرئيس الراحل «محمد أنور السادات» ولد دستور ١٩٧١، وأخيرا ولد دستور ٢٠١٢ من رحم ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

قد ظهرت الدساتير فى حياة البشرية فى أثينا على هيئة قانون العقوبات عام ٦٢١ ق. م.

ويعتبر أقدم دستور مكتوب لدولة ذات سيادة هو دستور إمارة سان مارينو.

وقد عرف الإسلام الدستور المكتوب فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمى بـ «الوثيقة» التى قام بإعدادها رسول الله لتنظيم أحوال دولة المدينة المنورة.

والدستور يصدر بأسلوبين.. أسلوب المنحة أو أسلوب العقد أو الاتفاق، أما الأساليب الديمقراطية فى وضع الدستور فتتم عن طريقى الجمعية التأسيسية المنتخبة أو أسلوب الاستفتاء الشعبى.

وكان من أول من أخذ بأسلوب الجمعية التأسيسية الولايات المتحدة الأمريكية غداة استقلالها عن بريطانيا سنة ١٧٧٦، وانتقل من بعدها إلى أوربا فكان دستور ١٧٩١ الفرنسى أول دستور مدون حيث إن هناك الدستور غير المدون مثل الدستور الإنجليزى

فهو دستور جامد ، أما الدستور المرن فهو الذى يمكن تعديله باتباع نفس الإجراءات المتبعة لتعديل القواعد القانونية، ومن أمثلة ذلك دستور إيطاليا ١٨٤٨، ودستور فرنسا ١٨١٤، ودستور الاتحاد السوفيتى ١٨١٨.

وينبغى أن يتوافر فى واضع الدستور أن يكون متحليا بصفات خاصة مثل الحيدة والنزاهة وبعد النظر وإمعان الفكر. ديمقراطى النزعة صاحب ذمة وهمة وعلو رأى.. وألا يسير كما عبر البعض مع اتجاه التيار «Down stream».. تيار الحاكم أو المغرضين الذين يتربصون الدوائر بمصلحة الشعب.

وقد تعرضت مصر إلى تجربة قاسية من خلال الدستور الصادر عام ١٩٢٣ كماذهب الأستاذ «محمد زكى عبد القادر» فى كتابه «محنة الدستور» حيث كان هذا الدستور – أحيانا – لعبة فى يد الملك اعتمادا على بعض نصوصه الفضفاضة.

إذ إن اللجنة الاستشارية التشريعية قد جعلت الدستور يتعرض لتبديل حقيقى حيث أنها كانت كلها من الأجانب فيما عدا مصرى واحد هو «الدكتور عبد الحميد بدوى باشا».. القاضى بمحكمة العدل الدولية، فيما بعد.

كما جرى تعديل آخر بشأن تعيين وعزل ضباط الجيش المصرى فجعلها حقا مطلقا للملك. كما نصت على ذلك المادة ٤٦ من ذلك الدستور.

ولن ينسى التاريخ ما فعله إسماعيل صدقى بهذا الدستور من إلغائه، الأمر الذى جدد المقاومة الشعبية لمناوئة ذلك، وسجن أستاذنا العقاد وكذلك سجن الأستاذ محمد توفيق دياب رحمهما الله جراء مهاجمتهما الحادة والعنيفة لتعطيل الدستور.

وقد جهرت بالرأى إننا نرى مع شيخ رجال القانون العلامة «الدكتور عبد الرزاق السنهورى» أن طريق وضع الدستور يجب أن يخضع للتدابير الآتية: «الرجوع للشريعة الإسلامية الغراء فى وضع قواعد الدستور واعتبار الأمة هى التى تعبر عن الإرادة الإلهية بإجماعها، وإجماع الأمة نوع من التعبير عن الإرادة الإلهية».

وقلت من بين ما قلته فى هذه المحاضرة أن وضع الدستور يجب أن يكون عن طريق لجان لأساتذة الحقوق والجامعات ورجال القضاء والمثقفين لوضع اللبنات الأولى للدستور وأن يعرض مشروعه المزمع على مجلسى الشعب والشورى ثم طرحه للإستفتاء الشعبى حتى يكتمل بناؤه. وأن الدستور يجب أن يكون الاتفاق عليه فى هذا الاستفتاء بغالبية الشعب المطلقة حتى يضحى دستورا حيا بمنأى عن النقد .. وبعيدا عن الشوائب والأوضار.

رحمة الله على الموتى.. وسلامه على الأحياء..

قال الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ صدق الله العظيم.

«لا يندغم ولا يفنى».. «فالحكومات تزول وهو لا يزول».. قالها الإمام محمد عبده عام ١٨٧٦ – فى معرض حديثه ـ عن معدن شعب مصر.

مصر وطن لا نعيش فيه ولكنه هو الذى يعيش فينا، جأر بها قداسة الأب شنودة بحسه الوطنى.. وحدسه الدينى.

«مبارك شعب مصر» – ساطعة – منذ القدم فى الكتاب المقدس.

– ولله دَر – الذى قال.. فإلى الله من مشى بصليب فى يديه.. ومن مشى بهلال.. فالدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما.

فيا أيها المجرمون الآثمون.. لقد تهاوى وحبط ما أردتموه من خراب يباب لمصر فقد التفت قلوب المصريين – مسيحين ومسلمين – بعضها حول بعض ولم تؤثر فيهم – قِيد أنملة – فزعة الهول التى أصابتهم جراء ما اقترفت أيديكم الملوثة بالدماء، من وأدكم للأبرياء فى واقعة ماسبيرو، ولم ولن تفلحوا – مجتمعين أو متفرقين – أن تنالوا من وحدة شعب مصر أو تفصموا عرى الوحدة التى جمعت بين جناحى الأمة مسلميها وأقباطها ولا وشائج القربى التى ربطت بينهم عبر كر السنين وتعاقب الأيام بفعلتكم هذه.. النكراء!.

إن شعب مصر يؤمن إيمانا كاملا بما ورد فى الذكر الحكيم ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة البقرة – الآية ١٣٦].

أحسستم بأن دائرة مصر تنداح فامتلأت قلوبكم حقدا وهما وأردتم بها شرا وشاء الله بها خيرا – فمصر هى كنانة الله من مسها بسوء قسمه الله – فالتوراة والإنجيل والقرآن هى كتب الله المنزلة جعلها الله «نوراً»، وشعارنا «لكم دينكم ولى دين».

ومن استقراء التاريخ نعلم أن اليهود فى مصر قد تبوأوا مكانا عليا حتى قيل : يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم، فالعز بينهمُ.. والمال عندهمُ.. وبينهم المستشار والملكُ.

وفى عهد محمد على رسخ مبدأ المواطنة – مقدسا – لدى جُل المصريين، وفى عهد سعيد باشا ألغيت الجزية المفروضة على أهل الذمة وانخرطوا برمتهم فى جيش مصر، وفى عهد إسماعيل أُوفد المسلمون والمسيحيون – معا – إلى خارج الديار لينهلوا من علم الغرب.

كما أمر إسماعيل بترشيح المسيحيين فى مجلس شورى النواب. وكذلك تعيينهم قضاة بالمحاكم جنبا إلى جنب أشقائهم المسلمين ومن قبلها ومن بعدها وإلى الآن أضحى منهم الوزراء والعلماء.

وفى ثورة شعب مصر – بجناحيه – العام ١٩١٩ اختلط دم المسلم بدم المسيحى وهتفوا جميعا عن بكرة أبيهم «يحيا الهلال مع الصليب».

من الأقوال المأثورة: «إن المصائب تسفر عن عجائب وعن رغائب لا يدركها العقل إلا بعد انجلائها». فالله يخرج الخير من الشر، فإذا اشتد الظلام وزمجر الرعد وقصفت الريح .. انقشعت الغمة وانبلج الفجر.

وبرسوخ الحق وثبات الجبال الرواسى ستقف مصر وقفة رجل واحد أمام غدر الغادرين وحقد الحاقدين ولن يفلحوا فى أن يمسوا مصر بأى أذى فإن مصر تستقبل المصائب وكأنها قطرات الغيث فمحمد رسول الله – عليه الصلاة والسلام – هو الرحمة المهداة. وعيسى عليه السلام هو روح الله فلا يفرقنا فى مصرنا أحد هكذا يؤمن المسلمون والمسيحيون على السواء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وسيبقى القرآن الكريم، وتظل الأناجيل المقدسة المنزلة من عند الله يطالعها الناس آناء الليل وأطراف النهار.. ولو كره الكارهون.

فهم يمكرون ويمكر الله.. والله خير الماكرين.

وآخيرا – وليس آخرا – فإن القبض على الجانى أو الجناة هو مطلب قومى حتى تهدأ القلوب وتستقر النفوس. ويعرف الجميع أن فى مصر عينا للعدالة ساهرة تقف بالمرصاد لكل من يتربص بمصر الدوائر، أو يحاول أن ينفث سمومه بين ظهرانيها.

❑❑❑

رسالة .. قاضى القضاة .. !!

منـذ قرابـة ما ينيـف على ربع قـرن خـلا.. عرفت المستشـار ابراهيـم زغو قاضى قضاة مصر.

كنـت آنذاك أعمل فى أقاصى الصعيد ،مديرا لنيابتى الاقصر، وأرمنت. وكان رئيسـا (منتدبا) لنيابة سوهاج.

وإذ عنَّ له أن يشـد الرحال لزيارة مدينة (طيبة) ماكثا بها ليال ثلاث كان ضيفا كريما على كاتب هذه السطور. وقد اهتبلنا فرصة وجوده بيننا، وتحلق رجال النيابة حوله، طلبا للمزيد من علمه وفضله وخبرته، يسـتبطنون ما ظهر من حديثه معهم، ويسـتظهرون ما قد يكون تد خفى عليهم منه.

وذات يوم قائظ الحر، شـديد الحرارة، أبت فيه أخت يوشـع، أن تفارق كبد السماء، يممنا وجوهنا – نحن وكلاء النائب العام – تجاه المستشار زغو لأخذ رأيه فى قضية مهمة اختلفنـا حـول التصرف فيها وهذا شـأن رجال القضاء جميعا، كثـيرا ما يختلفون تجاه ما يعرض عليهم من قضايا حتى يهديهم الله سبحانه وتعالى سواء السبيل. موصلا إياهم إلى مرفأ الحق، فيجعلهم يستقرون. على ماكانوا فيه يختلفون أو يأتون برأى أخر جديد.

وإذا بالمستشار زغو الذى كان يرتدى (بزته) الكاملة. وقد ألفى، البعض من الحاضرين وهو يرتدى ملابسه الرسمية، والبعض الآخر، قد تحلل (قليلا) منها، ينصرف عن طلبتنا فيما سعوا إليه لكى يدلى بدلوه فيه لأن ولكى – يحادثهم –ويحدثهم يحادثنا ويحدثنا عن مظهـر القاضـى. وما يجب أن يتحلى به القاضى من خلق طيـب (ومظهر) وقور وألا يغره بالله الغرور. فإن الله وقد وسده– سبحانه – كرسى القضاء لكى يحكم بين الناس بالحق. لأن الله هو الحق .

ودارت الأيام وكرت السـنون، وأصبح المستشـار إبراهيم زغو، قاضيا لقضاة مصر وإذا بـى أصحو ذات صباح. فتقع عيناى، على (رسـالة) بعث بها المستشـار زغو غداة توليه لمهام منصبه الجليل، إلى قضاة مصر، تهادت إليهم عبر أنهار الصحف، يناشـدهم فيها، الحفـاظ على حساسـية منصبهم. من خلال وقار مظهرهم ووجـوب أن يتزيوا دائما بالزى

المناسب واللائق بهم.. ولعل مرجع هذا إلى انخراط عدد من أعضاء النيابة الجدد فى السلك القضائى، هم فى مسيس الحاجة إلى من يعلمهم آداب القضاء وتقاليده التليدة الراسخة، لأن هذا الذى دعا إليه قاضى القضاء، هو دأب قضاة مصر، لا محيص له منه ولا معدى لهم عنه.

وكان هذا مما أثار عليهم حفيظة «البعض» من «الطغمة الحاقدة» التى طفت على سطح الحياة العامة فى مصر فى الستينيات من خلال حملة منظمة موتورة، على القضاة، مشتعلة النار، مشبوبة الأوار رمى فيها هذا «البعض» لغرض فى نفس يعقوب وكما يرمى غلام، «البحر» بحجر، القضاة بأنهم يعيشون فى برج عاجى.. وانبرى لهم «والدى» المستشار محمد مرشدى بركات – رحمة الله عليه – يخاطب هذه الفئة، من فوق منبر الأستاذ الكبير أحمد الصاوى محمد فى يومياته بجريدة الأخبار الغراء قائلا: نعم إن القضاة يعيشون فى برج عال.. إذا كان قوام هذا البرج (المزعوم) هو خلقهم المتين، وترفعهم عن الدنايا (ومظهرهم) الجاد الرصين، وهذا هو مسلك القضاة، وهذا هم سمتهم، وأن المرحوم عبد العزيز فهمى باشا، كان لشدة حرصه على كرامة وظيفته، وحساسية منصبه، يستقل فى غدوه، ورواحه، عربة «سوداء» «مغلقة». إيغالا منه فى مظهره، الذى لا يتباين عن مخبره، حتى لا يتعرف عليه أحد صبيحة ذهابه إلى محكمة النقض، أو عشية إيابه منها!!.

وها هو ذا قاضى القضاة يعيد سيرة سلفه العظيم!.

لا مشاحة – إذن – أن فى مصر قضاة.

قد قالها (برسالته) إلى القضاة.. شيخ القضاة!

❑❑❑

رسالة الصحافة.. بين عبد الله النديم.. والشيخ حمزة فتح الله ..

قالهـا «نابليون بونابـرت» وأصبحت آبدة من الأوابد يتناقلهـا كل من يريد أن يعرف قيمة رسالة الصحافة وأهمية رسالتها ولا شك أن الصحافة المصرية كان لها شأنها وشأوها ولعبت دورا هاما فى تاريخ مصر لحمته وسـداه فى الدفاع عن حقوق الوطن ضد المسـتبدين من حكامها والغاصبين الذى اغتصبوا الوطن وسلبوا الشعب حقوقه.

فالصحافة هى صاحبة الجلالة التى يجب أن تكون ذاتها مصونة لا تمس لا يفئت على حقها فى التعبير أحد ولا يقيد حريتها إنسان.

وكـم حوربـت الصحافـة برجالاتها حربا لا هـوادة فيها فقد وقـف كل ظالم لها بالمرصاد، وضاق بها الحكام والسـلاطين وبعد أن نصبت الصحافة من نفسـها حارسـا لحقـوق الشـعب وحاميا لمصالح البلاد وبرز دورها من أواخـر عهد الخديوى إسماعيل بعد أن احتدم الصراع بين المواطنين وبين القوى الأجنبية فاتجه إسماعيل إلى تشـجيع الصحف الشـعبية وإطلاق حريتها لتسـانده فى مواجهة الدول الدائنـة بعد أن أثقلوا الديـون عليها، ومـن خلالها بعد ذلـك وأدوا حريتها. فما كان مـن هاتيك الصحف إلا أن مضـت تدافـع عن اسـتقلال مصر معارضـة التدخل الأجنبى فى شـئونها ومع ذلـك فقد يممت وجهها متصدية لنقد سياسـة الخديو وتصرفاتـه ومن تلك الصحف (مصر والتجارة) اللتين أصدرهما الأديب «إسـحاق» فى سـنة ١٨٧٧، ١٨٧٨ بمساعدة جمـال الدين الأفغانى وصحيفة (الوطن) التى أصدرها «ميخائيل عبد السـيد» ليطالب بالإصلاح النقابى والإصلاح المالى فتعرضت للبطش عدة مرات.

ومنذ صدور «الأهرام» فى ٧ أغسطس عام ١٨٧٦ ولم يمر عامان من إصدارها حتى انضمت إلى صحف المعارضة فهاجمت الحكم الاستبدادى، وطالبت بحكم الشورى. فعارضت النفوذ الأجنبى. ونسجت على منوالها توأمها «صدى الأهرام» التى أغلقتها حكومة «شريف باشا» نهائيا فى ٥ مايو ١٩٧٩.

ومـا أن تولى «البارودى» رئاسـة النظـارة، و«أحمد عرابى» وزارة الحربية حتى اشـتد الأمـر على صحف السـوريين واللبنانيين وتوقفت عن الصدور صحـف الأحداث، والأهرام والمحروسة ومصر على الصحف الموالية للخديوى.

مثـل صحف، وعملـت على زيادة الصحف الموالية لها مثل القسـطاط والنجاح والمفيد والطائـف) لعبدالله النديم، وكانت جل الصحف المصرية قـد أيدت الحركة العرابية فلما احتل الإنجليز الإسكندرية فى يوليو ١٨٨٢ إنحاز الخديو لهم وشجر الخلاف بين الصحف وقـد تنازعهـا اتجاهان الأول فى القاهـرة ويضم صحف الحركة الوقائع المصرية «الشـيخ محمد عبـده» وكان منها المفيد والفسـطاط والشـعب والطائف لعبـد الله النديم بينما كان الاتجاه الثانى يتمثل فى (الاعتدال) لصاحبها الشيخ «حمزة فتح الله» الذى عاضد الخديو.. وشن هجوما شرسا على أحمد عرابى ورجاله.

انضم إليه «أديب إسحاق» صاحب مصر والتجارة منقلبا على حركة عرابى بعد الاحتلال وشاركه خصمه القديم «حمزة فتح الله» حتى انكشف أمرها وذاع سرها.

وكان «عبد الله النديم» فى تلك الآونة يرى نفسـه أنه ليس أقل شـأنا من أى قائد من قادة الشرق العربى فى عصره بل إنه لم ير نفسه أقل من «جمال الدين الأفغانى» ذاته وكان النديم من قبل منتظما فى سـلك مجالس «جمال الدين الأفغانى» ولكن شـخصيته لم تذب فيه، كما ذابت شـخصيات الكثيرين من معاصريه مع أن جمال الدين الأفغانى كان يقدره بحق قدره ويقول فيه: «إنه لو حافظ على العقيدة؛ ومشى بالناس فى سيرة حميدة، ونشر دعوته (يقصد السياسـية) فى البلاد – بما له من الاسـتعداد – الآتى بكل غريب؛ وقلب الحكومة فى عهد قريب..».

كان «عبد الله النديم» رجلا يفهمها وهى طايرة «كما يقول السكندريون» ومعنى هذا أنه لا يجوز عليه شـىء من البهرج الذى يلجأ إليه الكثيرون من الراغبين فى إحاطة أنفسـم بهالة من الخطورة المتوهمة، أو العظمة الزائفة. ولذلك لم يجز عليه كثير من المظاهر التى كانت رائجة فى عهده؛ أو – على الأقل – لم تنل من اهتمامه فوق ما تستحق.

قيل له إن جمعية «مصر الفتاة» السـرية بالإسـكندرية هى من أهم الوسائل التى ستقود البلاد إلى التحرر، وذلك بما لها من إمكانيات سـرية هائلة. فانضم إليها ولكنه سـرعان مـا خـرج منها، وراح يدعو الناس إلى العمل فى النور؛ ذلك لأنه كان – كما يقول الدكتور

الحديدى «.. يؤمن بأن الطريق السليم للإصلاح، هو تنبيه الرأى العام؛ وتبصير الشعب بما يدور حوله؛ فتتسع الدائرة؛ ويصبح العمل جماعيا من الأمة»..

وهذا يتم عن طريق تكوين رأى عام من أصحاب المصالح الحقيقية، وهم سواد الشعب؛ أو بتعبير النديم نفسه. فلم أجد طريقا لتنبيه الوجهاء والأمراء إلا بعصبية أكونها من الفقراء.. ومن ثم أنشأ «الجمعية الخيرية الإسلامية» التى لم تكن مجرد جمعية خيرية – كما يبدو من اسمها – وإنما كانت مصدر إشعاع سياسى اجتماعى علمى أيضا، وذلك بإقامة مدرسة تابعة لها، بكثرة الاحتفالات والاجتماعات التى كانت تقام باسم هذه المدرسة، وبتوجيه من «النديم» باعتباره مشرفا عليها.

وقد كان يخطب فى كل حفل منها، فى موضوعات تهم الوطن، وتعرف بمصالحه، كما كان يخطب فيها، عدد من الشبان المثقفين، الذين أعجبوا بالنديم وحركته فاتخذوه لهم رائداً؛ فى الخطابة والدعوى الوطنية.

كذلك دخل «النديم» الماسونية ؛ وخرج ليقول: من أسباب انحراف الناس عن «الأفغانى» أنه أدخل تلاميذه المحافل الماسونية، وأنه لزم الصمت تجاه الذين أخذوا عليه هذا الاتجاه..

وذلك امتعاضًا واعتراضا من «النديم» على غموض رسالة الماسونية والقسم الذى يقسمه كل ماسونى غدا التحاقه بالمحفل الماسونى إذا كان يقسم «أقسم بمهندس الكون الأعظم، ألا أخون عهد الجمعية، وأسرارها، لا بالإشارة، وبالكلام؛ ولا بالحركات، وألا أكتب شيئا عنها، ولا أنشر بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضى أن حنثت بقسمى بأن تحرق شفتاى بحديد محمى، وأن تقطع يداى، ويحز عنقى؛ وتعلق جثتى، فى محفل ماسونى».

كان النديم قد شق طريقه بقلمه إلى عقول القراء وبصوته إلى قلوب الجماهير فأصدر العدد الأول من مجلة «التنكيت والتبكيت» بالإسكندرية فى اليوم السادس من يونيو ١٨٨١ باعتبارها أسبوعية فى ١٦ صفحة من القطع المتوسط؛ وتعتبر – هذه الجريدة – أول صحيفة مصرية لحما ودما وولاء للإسكندرية.

كان لسان أحادها أن تترك على القارئ حكما وآدابا ومواعظ وفوائد ومضحكات، بعبارة سهلة، وتصور الحوادث والواقائع فى صور ترتاح إليها النفس، ويميل إليها القلب، يخبرك بظاهرها المستهجن .

ومن ضمن ما كتبه النقيب فيها مقال على لسان مصر تحدث فيها عن الظلم والإجحاف اللذين حاقا بأبنائها فى عصر «إسماعيل»؛ وعن نهب الأجانب لثروتها؛ وإخفاق «توفيق» فـى معالجة الأمور .. حتـى أصبح المثل الإعلامى للثورة العرابية سـواء بالكلمة المكتوبة أو بالكلمـة المنطوقـة. ومن ثم اختاره «أحمد عرابى» زعيم الثـورة واختار مجلة «التنكيت والتبكيت» لتكون لسانا رسميا للثورة. على أن يستبدل باسمها اسما آخر هو (لسان الأمة) ولكن النديم آثر أن يكون اسمها الجديد (الطائف) صدر العدد الأول منها فى اليوم العشرين من نوفمبر سنة ١٨٨١.

أما عن الشـيخ «حمزة فتح الله» صاحب جريدة «الاعتدال» والذى أوحى الخديوى بها وجعلها لسانه والمدافعة عنه أمام الجماهير التى كانت تناؤه فقد أصبح لسان سيده «الخديو توفيق» ودعى على عكس «النديم الوطنى» إلى عدم مقاومة الإنجليز. ومما قاله فى جريدته: إنهم لن يتسنى أن نمنع النفوذ الأجنبى عن البلاد إلا بالقبض على العرابيين.. وأن الجناب الخديـو هـو على جانب عظيم من التقوى والدين.. وأنه ليس أول من نصر بغير دين فكان أن أرسـلها النديم شواظا من النار فى وجه الشـيخ «حمزة» فى أول أعمال «الطائف» حقر من صحيفته وكان مما قاله فى هذا الخصوص إن الخديو أشـقى الخلق وأنه يطبع جريدته أو وريقتـه كما أسماه فى مطابع «الأجشـبيان غازيت» فى إحـدى المراكب الإنجليزية ثم يعرضها على «سيمور» قائد الأسطول الإنجليزى.

كان الشـيخ «حمزة فتح الله» مفتشا أول للغة العربية متقاعرا فى لغته غريبا فى ألفاظه ومن ضمن ما قال فى تقرير كتبه عن أحد المدرسين: «لم أرد بذلك التدميج إلا الرعوى على النشء، فإن فلا مع حفظ المبنى وفهم المعنى، خير من كثر يطوح بهم فى موامى النبت.

هل فهمت شيئا أيها القارئ العزيز من هذه الألفاظ الغامضة.. وهكذا كان غموض موقف الشـيخ «حمزة فتح الله» من الثورة العرابية ومن الحركة الوطنية على عكس الوطنى الثائر «عبد الله النديم» الذى خلده التاريخ المصرى فى أمجد صفحاته.

❑❑❑

سرجيوس.. قس الشيوخ.. وشيخ القسوس.. ؟!

بمـلء فمه.. وبصوت جهـورى.. وإبان ثورة مصر الكبرى عام ١٩١٩.. وأمام الحشـد الحاشـد من الجماهير الثائرة – مسـلمين ومسيحيين – الذين زحفوا من كل حدب وصوب ملتفة حواليه لتنصت وتستمع إليه كان يرفع عقيرته صائحا: «فليحيا الإنجليز»؟!.

وإذ – يرتـج – الأمـر علـى السـامعين يواصـل هتافـه قائلا مـرة أخـرى «فليحيا الإنجليز»؟!.

ثم يلوذ بالصمت هنيهة ماضيا فى مخاطبة الجموع المتطلعة إليه – ثم يردف – مخاطبا إياهم «فليحيا الإنجليز».. الذين استطاعوا بغيهم واستبدادهم واحتلالهم لبلادنا أن يجعلوا منا هذه الكتلة الموحدة الملتهبة المقدسة وأن يؤاخوا بين عنصرى الأمة.

وكان الإنجليز بعد ضربهم للإسـكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ قد أصبح لهم صولجان.. وجنود وسلطان وأضحت الثورة بالنسبة لهم غصة فى الحلق. وأعجوبة فى الخلق وبحثوا حتى أضناهم البحث فلم يجدوا إلا سـلاح الفتنة يصوبونها إلى صدور المصريين فاستعصت عليهم الصدور. وانغلقت أمامهم القلوب حتى إن اللورد «كرومر» الذى كان يمسـك بخناق المصريين ويجثم على أنفاسـهم بكلكله قال: إنك لا تستطيع أن تفرق بين المسلم والمسيحى فكلاهما يدخل إلى الجامع وإلى الكنيسة وكلاهما يخرجان متحابين.

ترعرع «سـرجيوس» فى كنف أسـرة دينية فوالده أحد القساوسـة الكبار وكذلك كان جده قسيسـا. وانتظم فى سلك الكهنوت منذ نعومة أظفاره فدعى إلى إصلاح مناهج التعليم الكنسى الذى ارتأى وجوب إصلاحه من خلال المدرسة الإكليريكية التى كان يدرس بها. إذ ألفاها لا تناسـب العصر فانتشـرت دعوته بين الطلبة وامتثلت تلك المدرسـة – لطلبته – بعد أن أضرب طلابها عن الدراسة.. وقيل إن هذا هو أول إضراب فى تاريخ مصر.

رحل «سرجيوس» إلى السودان حيث أنشأ جريدة «المنارة» ومن فوق منبرها شن هجومه الضارى على سياسة الاستعمار الإنجليزى الذى دأب على أن يبث بذور الفتنة بين المسلمين والمسـيحيين، فدفع ذلك المستر «مـور» حاكم السـودان – وبعد أن ضاق به ذرعا – إلى أن يطلب منه مغادرة القطر الشـقيق محدثا إياه – وبحدة –: إن الحاكم العام للسودان يطلب منك أن ترحل من السودان فى خلال أربع وعشرين ساعة.

فما كان من «سـرجيوس» إلا أن جابهه وبنبرة ملؤها الاعتزاز بكرامته: «أنا لسـت فى لندن حتى يأمرنى الحاكم العام بمغادرة البلاد..أنا هنا فى بلادى وليرحل هو إذا شاء».

آب «سـرجيوس» إلى أرض الكنانة وكانت ثورة ١٩١٩ قد شـب نارها واشـتعل آوارها فأخـذ يطوف مع المرحوم «محمد فتح الله بركات باشـا» ابن شـقيق الزعيم سـعد زغلول ليدعـوا إلى مجاهـدة الإنجليز وإلى طردهم من بر مصر المحروسـة.. وكان يدلف إلى صحن الأزهر الذى أسماه حصن الثورة الحصين يخطب فى الجموع الهادرة ويظل هكذا – دواليك – قرابـة الثلاثة أشـهر – لا يذوق خلالها طعم النوم يخـرج من صحن الأزهر ليطوف فى البـلاد يخطب فى العباد مسـتقلا «عربة حنطور» ليلهب حمـاس المصريين ضد الإنجليز فاسـتدعاه «كين بويرن» مدير أمن القاهرة – آنذاك –» واقتاده هو ورفاقه من رجال الثورة إلى ثكنات قصر النيل وألقوا بهم فى غرفة مظلمة ممتلئة بالهوام والحشـرات ثم سِـيق هو وصحبه إلى مدينة رفح وكان منكبا فى خلال هذه الفترة التى أمضاها فى غياهب الجب فى قراءة اشتات من الكتب الدينية، وعاد بعد ذلك إلى القاهرة ليواصل – حثيثا – نضاله ضد المحتل الغاصب رافعا مع رفاقه من المسلمين علم – الهلال مع الصليب – حتى ذاع صيته فى أرجاء مصر برمتها حتى أنه لما رشـح نفسـه فى انتخابات مجلس النواب عام ١٩٤٩ كان الناس يهتفون له: (من غير فلوس.. يا سرجيوس).. ولما – حانت منيته – فى آوائل الستينيات عثروا على آخر مقال له دبجته يراعته بعنوان (لن أكف مطلقا).

هذا هو سرجيوس القبطى الوطنى ابن مصر البار الذى وصفه الزعيم «سعد زغلول» بأنه: «خطيب ثورة ١٩١٩». فقد عمل بدون كلل أو ملل على توحيد عنصرى الأمة.

❑❑❑

يوم .. أن مات سعد زغلول

فـى ذلك اليوم البعيد ٢٣ أغسـطس ١٩٢٧ دبجت يراعته هـذا الكتاب القيم «فى دروب الوطنيـة» كتـب الدكتور «عصام الدين جلال» يقـول: وفى هذا اليوم الذى لم تمح السـنون الطوال انطباعاته من الذاكـرة أو القلب. لفت نظرى بمجرد الخروج من المدرسة هدوء وسكون غريب يلف شمل المدينة. ولما تأكد لى بعد قطع جزء من الطريق تسـاءلت عن تفسـير هذا التغيير الملموس. وأخبرنى الفتى أن زغلول باشـا قد مات. ولم يكن يتذكر بقية الاسم ولكنه كان يعرف أنه الباشا الكبير. ولما أمعنت النظر على مدى الطريق وجدت الوجوم والتجهم والأسى يصبغ أوجه الناس. وحتى على المقاهى لم يكن هناك الصخب والمرح المعتاد بل رأيت الكثيرين يمسـحون دموعهم. بل خيل إلى أن جو وفراغ المدينة ومبانيها قد خيم عليه الأسـى والحزن والسكون. ولم أتمالك، أنا الطفل. إلا أن أحول حديثنا إلى همس. وأفقد كل رغبة فى الابتسام أو المرح الذى كان عـادة ما يسـبغ حديثنا فى رحلتنا. وقد أتيح لى فيما بعـد أن أعرف الأكثر عن الفقيد سـعد باشا زغلول. وألمس مدى الحب والإجلال اللذين يكنهما له الناس ومدى الحزن والأسـى الذى عن بوفاته. كما اتيح لى التعرف على سـير الأبطال وإنجازاتهم وسايرت بل وحملت جثث شهدائهم. ورافقت كفاحهم فى مصر وفى أنحاء أخرى من العالم. ولكن بقى لا ينسـى حزن طنطا التلقائى والدفين. لوفاة زغلول باشا رمز الوعى والصحوة الوطنية. مهما تعمقت معلوماتى وتوسـعت تجاربى وتنوعت خبراتى. وعلى مدى سنوات العمر الطويل رأيت الجماهير فى مصر وخارجها تعبر عن أسى وألم الفراق لرموزها البارزة السياسـية والاجتماعية والفكرية. رأيت بكاء ونواحا وصراخا تعبر به عـن فجيعتها وأحلامها المهدرة ومخاوفها الكامنة. كمـا فعلت فى جنازة جمال عبد الناصر. ولكن درس جموع أهل طنطا بكل فئاتهم وأعمارهم فى خشوعهم وألمهم الدفين فى أعماقهم بقى أكثر الدروس رسـوخا وأثرا فى نفسـى وركيزة من أبرز ركائز ضميرى الاجتماعى.

كتـب الدكتـور «مارتن هاول» أول وزيـر مفوض للولايات المتحـدة الأمريكية فى مصر يقول عنه فى إحدى الصحف الأمريكية «ولسـت أبالغ إذا قلت إنه أعظم رجل قابلته فى

حياتى.. إنه جورج واشنطن الشرق» فاختلف اللورد لويد بشأن ما كتبه عن سعد فقال له: إن كلمة من هذا الرجل ستخرجكم من مصر. فرد عليه لويد: إذا قال هذه الكلمة حكمت عليه بالإعدام. فأجابه «مارتن هاول» إنه من الناس الذين يبقون أحياء حتى ولو ماتوا. ثم ألف كتابا من خلال إعجابه بسعد. عن مصر أسماه مصر الماضى والحاضر والمستقبل.

كان «أزهريا ثائرا» تتلمذ على يد عظيمين من عظماء الشرق. هما جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأصبح فيما بعد صديقا ونـدا لهما. فلا غرو أن أصبح فيما بعد. مفجر ثورة ١٩١٩ وقائـدا لها هذه الثورة الخالـدة التى زاد فيها ولأول مرة فى تاريخ الثورات – عدد القتلـى عن عدد الجرحـى «١٦٠٠ قتيل – ١٥٠٠ جريح» – كما دون الرافعى فى كتابه القيـم فى أعقاب الثورة – ورأها أعظم حركة قومية فى تاريخ مصر الحديث.. وكان قاضيا عظيما فلم يكن القاضى الذى يتعبد النص القانون ليضحى بالعدالة فى سبيله بل كان قاضيا جزئيا مجتهدا لا يتمسـك بحروف القانون ولا يعض عليها بنواجذه ولا يخرج فى تفسـيره عمـا يتفـق والمصلحة العامة لأن الأصل فى القانون هـو العدالة. وماكان أكثر ما يتردد فى أحكامه ويرد فى حيثياته قوله: وحيث إن قواعد العدل والإنصاف تقضى.

وكان وزيرا شجاعا عندما عين وزيرا للمعارف أصلح من شأن التعليم خلال أربع سنوات قضاها فى هذه الوزارة بذل خلالها جهد الجبابرة ليهدم النفوذ الإنجليزى الذى كان ينشر ظلاله القاتمة على شـتى مناحى التعليم. تحدى نفوذ المستشـار الإنجليزى «دنلوب» الذى كان يضـع التعليـم فى قبضته. وأحل اللغة العربية محل اللغة الإنجليزية ودأب على فتح العديد من المدارس. وأعاد إلى وزارة المعارف كل من هجرها من كبار رجال التعليم وأكثر من إرسال البعثات إلى أوروبا وفتح باب المجانية لتعليم الفقراء. وعين وزيرا للعدل سنة ١٩١٠ بعد أن حرص اللورد «جرسـت» على نقله من نظارة المعارف للحد من نشـاطه فيها. فعمد إلى القضاء فأصلحه وعزز كرامته. وناضل من أجل حريته واستقلاله وانتصف للمبعدين من رجاله الذين كان قد عصف بهم. كذلك سعى إلى إنشاء نقابة المحامين التى أصبحت منارا للدفاع عن الحق وتربصوا به الدوائر فى مسـألة تافهة متعلقة بصديق من أصدقائه فاضطر إلى الاستقالة عام ١٩١٣.

انتخب وكيلا للجمعية التشريعية. ونجح فى دائرتين من دوائر القاهرة. والقاهرة كلها أنذاك أربع دوائر دون أن يكون منتسبا لحزب أو لفئة معينة من الناس وعندما شجر خلاف

فى هذه الجمعية من يكون الرئيس لها حالة غياب من يرأسها الوكيل المعين؟ أم الوكيل المنتخب؟ وتشيع المتشيعون من طلاب السلطة والسائرين فى ركب النفاق لأن يكون الوكيل المعين هو الرئيس، حينئذ. هب سعد زغلول فيهم قائلا: الوكيل المنتخب هو الرئيس.. ثم أردف قائلا أنا هنا أمثل إرادة الشعب!.

ذهب هو وزميلاه عبد العزيز فهمى. وعلى شعراوى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى إثر إعلان الهدنة فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ إلى دار الحماية البريطانية يطالب باستقلال البلاد، وعندما دهش عميد دار الحماية «ريجنالد ونجت» من طلبه فقال له متعجبا مستوثقا: كأنكم تطلبون الاستقلال؟! فأجابه سعد: نعم ونحن أهلا له.

وكان زعيما قائدا ثائرا أسمع الدنيا حق مصر فى الاستقلال. فقبضت عليه السلطة الإنجليزية واعتقلته. ونفته فى الثامن من مارس ١٩١٩ مع حمد الباسل. ومحمد محمود. وإسماعيل صدقى إلى جزيرة مالطة. حيث كان الإنجليز ينفون أسراهم من الأتراك والألمان، فذهب إلى منفاه بعد أن أضرم النار فى الثورة الكامنة فى قلب شعب مصر. فكانت ثورة ١٩١٩.. أول ثورة فى تاريخ هذا الشرق العربى.

وفى يوم الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٢١ تم القبض عليه ونفيه مرة أخرى بعد أن طوقوا بجحافلهم. وفيالقهم بيته الذى يقطن فيه حتى إنه عندما رأى هذه القوة الضاربة تحيط بمنزلة. سخر من قائدها قائلا: هل أعلنت انجلترا الحرب على مصر؟ وخرج معهم إلى الشارع والجماهير تهتف فى إشفاق عظيم: إلى أين يا سعد؟.. إلى أين؟.

فتابع سيره وهو الشيخ الجليل الذى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا وقد أغرورقت عيناه بالدموع.. عالى الرأس.. رابط الجأش ليس فى خطوة إسراع، ولا تثاقل ولا فى نظراته أو حركاته ما يدل على قلق أو اضطراب، ويده اليسرى فى جيب معطفه، ويده اليمنى تحرك عصاه حركة بطيئة عادية، ثم أركبوه سيارة مغلقة تحيط بها القوة العسكرية المدججة بالسلاح الشاكى وأنزلوه فى خيمة تعصف الرياح من خروقها ثم توجهوا به إلى مرفأ السويس ذاهبين به إلى «عدن» مع زملائه مكرم عبيد، ومصطفى النحاس وسينوت حنا وعاطف بركات وفتح الله بركات بينما كانت مصر كلها مرجلا يغلى، يموج بالغضب، والاضطرابات تسودها من أدناها إلى أقصاها، وفى «عدن» عرضوا عليه أن يكون ملكا على مصر فرفض فى إباء وشمم وقال لمن فاتحه فى ذلك: إننى أفضل أن أكون فردا من الأفراد

فى أمة مستقلة، على أن أكون ملكا لبلاد مستعبدة فى ظل حماية أجنبية فنقلوه بعد ذلك هو ورفاقه إلى جزيرة سيشل ثم «منفردا» بدونهم إلى جبل طارق، ورضخ الإنجليز، وخضعوا وأعلنوا استقلال مصر وإلغاء الحماية البريطانية فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ فوصف سعد هذا التصريح بقوله : هو ناقة البدوى التى تباع بمائة درهم، وتباع التميمة التى فى رقبتها بألف، ولكم لأتباع الناقة بغير التميمة فما أحلاها من صفقة لولا «الملعونة» فى رقبتها!.

وإن كان لنا أن نذكر لتبيان حب الشعب المصرى الجارف لسعد وانصياعه إلى قيادته فإننا نذكر هذا الحديث الذى سجله التاريخ.. فبينما كان سعد زغلول فى المنفى جاءت إلى مصر لجنة «ملنر» أصدر الوفد قرارا بمقاطعة هذه اللجنة على أساس أن المفاوضة يجب أن تكون مع سعد زغلول وحده.

ملنر لم يصدق أن المصريين جميعا قاطعوه.. وفى أحد الحقول النائية توقف ركب ملنر، ونزل الرجل ليحاصر بأسئلته فلاحا بسيطا.

س : اسمك؟

جـ : (صمت).

س : هل أنت متزوج؟

جـ : (صمت)

س : هل عندك أولاد؟

جـ: اسأل سعد باشا؟!

س : الساعة كم الآن؟

جـ: اسأل سعد باشا؟!

واضطر الإنجليز إلى الإفراج عنه وعاد إلى مصر واستقبل من شعب مصر استقبالا لم يعرف التاريخ له مثيلا حتى إن كاتبا كبيرا كتب عنه يقول : لو قدر للإسكندر الأكبر، أو نابليون بونابرت أن يشهد ما شهده سعد زغلول من استقبال الجماهير الهادرة له.. فماذا كان يتمنى لنفسه أكثر من ذلك. ونشرت جريدة البلاغ آنذاك مانشيتا عريضا معنونا منية المرشد – معقل الزعيمين فتح الله بركات وعاطف بركات – تحتفل بعودة أبنائها زعماء مصر من المنفى وتناقلت صحف العالم هذا المانشيت.

وعاد الثائر العظيم يكافح من أجل الدستور حتى صدر دستور ١٩٢٣ الذى جعل فيه حكم مصر لإرادة الشعب رغما عن ملكها أحمد فؤاد.. ثم ترأس مجلس النواب فشرف به

المجلس «وكان رئيسا له ولا كل رئيس» كما عبر المفكر الكبير عباس محمود العقاد فى مقال له عن سعد بعنوان «عظيم كل حياته عصامية».

وفى مثل هذا اليوم منذ ثمانين عاما – ونيف – مات سعد زغلول فبكته مصر كلها بدماء قلبها، وعصارة فكرها ويعبر أدباؤها وشعراؤها عن الحدث الجلل فينشد حافظ.

إيه ياليل هل شهدت المصابا ... كيف ينصب فى النفوس انصبابا
بلغ المشرقين قبل انبلاج الصبح ... أن الرئيس قد ولى وغابا
وانع للنيرات سعدا فسعد ... كان أمضى فى الأرض منها شهابا
قل لها غاب كوكب الأرض فى ... الأرض فغيبى عن السماء احتجابا

وينشد «شوقى» الذى كان غائبا عن الوطن – آنذاك – معبرا عن حزنه لموت سعد وتلقيه نبأ وفاته وهو بعيد عن الوطن:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها ... وانحنى الشرق عليها فبكاها
ليتنى فى الركب لما أفلت ... يشوع، همت فنادى فثناها

وتدبج يراعة العقاد:

حملوا على المِدفع مدفعا ... الأساطيل اتقته والحصون

وتكتب التايمز الإنجليزية عنه مقالا معنونا: مات الأسد المصرى..

فسلام على سعد فى الخالدين.

❑❑❑

سلام الله.. على مصر..

لا ينعدم ولا يفنى.. فالحكومات تزول وهو لا يزول.. قالها الإمام محمد عبده عام ١٨٧٦م – فى معرض حديثه – عن معدن شعب مصر

«مصر وطن لا نعيش فيه ولكنه هو الذى يعيش فينا»

جأر بها قداسة الأب شنودة بحسه الوطنى.. وحدسه الدينى.

مبارك شعبى مصر – ساطعة – منذ القدم فى الكتاب المقدس.

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة المائدة – الآية ٨٢] صدق الله تعالى.

وصدق الذى قال.. فإلى الله من مشى بصليب فى يديه.. ومن مشى بهلال.. فالدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما.

فيا أيها المجرمون الآثمون.. لقد تهاوى وحبط ما أردتموه من خراب يباب لمصر فقد التفت قلوب المصريين مسيحيين ومسلمين بعضها حول بعض ولم تؤثر فيهم قِيد أنملة فزعة الهول التى أصابتهم جراء ما اقترفت أيديكم الملوثة بالدماء، من وأدكم للأبرياء، ولم، ولن تفلحوا مجتمعين أو متفرقين أن تنالوا من وحدة شعب مصر أو تفصموا عرى الوحدة التى جمعت بين جناحى الأمة بمسلميها وأقباطها، ولا وشائج القربى التى ربطت بينهم عبر كر السنين وتعاقب الأيام، بفعلتكم النكراء.

إن شعب مصر يؤمن إيمانا كاملا بما ورد فى الذكر الحكيم:

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٣٦] .

لقد أحسستم بأن دائرة مصر – تنداح – فامتلأت قلوبكم حقدا وهما وأردتم بها شرا وشاء الله بها خيرا فمصر هى كنانة الله من مسها بسوء قسمه الله فالتوراة والإنجيل والقرآن هى كتب الله المنزلة جعلها الله نورا لنا أجمعين وشعارنا: (لكم دينكم ولى دين).

ومن استقراء التاريخ نعلم أن اليهود فى مصر قد تبوأوا مكانا عاليا حتى قيل: يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم، فالغز بينهُمُ.. والمال عندهُمُ.. وبينهم المستشار والملك.

وفى عهد محمد على رسخ مبدأ المواطنة – مقدسا – عند جُل المصريين، وفى عهد سعيد باشا ألغيت الجزية المفروضة على أهل الذمة وانخرطوا برمتهم فى جيش مصر، وفى عهد إسماعيل أوفد المسلمون والمسيحيون – معا – إلى خارج الديار لينهلوا من علم الغرب.

كما أمر إسماعيل بترشيح المسيحيين فى مجلس شورى النواب، وكذلك تعيينهم قضاة بالمحاكم جنبا إلى جنب أشقائهم المسلمين – ومن قبلها ومن بعدها وإلى الآن أضحى منهم الوزراء، والكبراء، والعلماء.

وفى ثورة شعب مصر بجناحيه فى ثورة ١٩١٩ اختلط دم المسلم بدم المسيحى وهتفوا جميعا عن بكرة أبيهم (يحيا الهلال مع الصليب).

من الأقوال المأثورة: «إن المصائب تسفر عن عجائب وعن رغائب لا يدركها العقل إلا بعد انجلائها». فالله يخرج الخير من الشر، فإذا اشتد الظلام وزمجر الرعد وقصفت الريح.. انقشعت الغمة وانبلج الفجر.

وبرسوخ الحق وثبات الجبال الرواسى ستقف مصر وقفة رجلا واحدا أمام غدر الغادرين وحقد الحاقدين ولن يفلحوا فى أن يمسوا مصر بأى أذى، فإن مصر تستقبل المصائب وكأنها – قطرات الغيث – فعيسى عليه السلام هو روح الله تكفلنا فلا يفرقنا فى مصرنا أحد كما قال الشاعر، هكذا يؤمن المسلمون والمسيحيون.

وسيبقى القرآن الكريم وتظل الأناجيل المقدسة المنزلة من عند الله يطالعها الناس آناء الليل وأطراف النهار.. ولو كره الكارهون.

فهم يمكرون والله يمكر.. والله خير الماكرين.

❑❑❑

سيناء.. هل نعمرها بالدعاء ..؟!

إن صحراء سيناء هى نقطة التقاء قارتين وخط فاصل بين بحرين. وكثيرا ما كانت توصف هذه الصحراء، التى تقدر مساحتها بأربعة وعشرين ألف ميل مربع، بأنها أرض قاحلة لا تصلح لشئ. وما هى إلا باب لأفريقيا وآسيا، وجسر بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر أى أنها أقرب طريق مؤدية من أوروبا إلى الأوقيانوس – المحيط – الهندى والشرق الأقصى.

وكانت هذه الصحراء، منذ البدء وكما ذكر المؤرخون من أهم مفارق الطرق فى العالم. فقد شق فراعنة مصر، فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، طريق قفر سور باتجاه غرب سيناء وبئر السبع والقدس. وشقوا طريقا أخرى ساحلية وطويلة كانت تربط وادى النيل ببلاد ما بين النهرين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. ولكن الرومان والأنباط يستعملون طريقا أخرى كانت تشق شبه جزيرة سيناء من الشرق إلى الغرب. وقد سميت فيما بعد «درب الحج» حيث كانت تستعمل طريقا للحجاج الذاهبين من مصر إلى مكة المكرمة.

وتظهر سيناء للوهلة الأولى مجدبة، تكسوها الجبال الصخرية القاحلة، وأرضها غير صالحة للزراعة، وتقل فيها الأمطار، وهى شديدة الحر فى النهار والبرد فى الليل.

ومع ذلك فإن سيناء ليست بصحراء ذات وتيرة واحدة، إذ أن القسم الشمالى منها الممتد من العريش حتى قناة السويس، يشكل ساحات رملية واسعة، اجتازتها فى الماضى ولعدة مرات جيوش عظيمة فمن هنا مرت جيوش الفراعنة لتحتل أرض كنعان وسوريا، ومن الجهة الأخرى غزا الهكسوس والأشوريون والفارسيون واليونانيون والعرب والصليبيون والأتراك سهول النيل الخصبة وتشهد بقايا قلعة صلاح الدين الأيوبى الجاثمة فوق أرض رأس سدر على أن هذا القائد المغوار تواجد على أرضها ذات يوم.

تعتبر منطقة التيه فى وسط شبه الجزيرة جبال كلسية. أما القسم الجنوبى منها والواقع داخل المثلث النهائى منها ملئ بالحجارة الصوانية (الجرانيت). ومن أهم جبالها الشديدة الانحدار: جبل سيناء، وجبل القديسة كاترينا، وجبل القديسة ابستيمى، وجبل سربال وأم سومار. وقد مر من هذه المنطقة شعب إسرائيل قبل خمسة وثلاثين قرنا.

تتمثل عظمة هذه الصحراء بجمالها الجذاب الذى لم تطله يد التلويث فى العالم المعاصر. يقطنها قلة من الناس، لا سيما البدو منهم الذين يعيشون من قطعانهم الصغيرة ومستنبتاتهم وأشجار البلح. كما يعيش فيها أيضا متوحدو دير القديسة كاترينا. هذا باستثناء المدن الساحلية. أما باقى الجزيرة، التى لا يعيش فيها بشر، فهى مقر للذئاب والضباع والماعز البرية والظباء والنسور. أما باطنها فغنى بأنواع من البترول والمعادن الأخرى، التى اجتذبت الإنسان منذ عهد المصريين الأولين.

ويقول بعض العلماء: إن كلمة سيناء مشتقة من الكلمة السامية «سن» بمعنى «سن» الإنسان. ويعود سبب هذه التسمية إلى شكل الجبال الشبيهة بالسن بتكوينها الجيولوجى الجذاب. ويذكر البعض الآخر: أنها مشتقة من كلمة «سين» بمعنى آلهة القمر التى كان يكرمها سكان الصحراء فيما قبل التاريخ.

وكما جاء فى الكتاب المقدس، هاجر موسى النبى من مصر وهو فى الأربعين من عمره، وجاء إلى جبل حوريب، حيث التقى ببنات يوثور السبع عندما كن يسقين قطيعهن من ينبوع الماء، الذى مازال، حتى يومنا هذا، فى الجانب الشمالى من كنيسة الدير المركزية.

تزوج موسى إحدى بنات يوثور، وعاش أربعين سنة مع حميه يرعى قطعانه ناذرا نفسه للهدوء والعزلة، فى صحراء سيناء، حيث ظهر له الله فى أعجوبة العليقة المشتعلة وأمره أن يعود إلى مصر ويأتى بشعب إسرائيل إلى جبل حوريب كى يعبدوه.. يعبدوا الله.

مر شعب إسرائيل فى سيناء فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى طريقهم إلى أرض كنعان، أرض الميعاد.

وبعد مرور ستمائة سنة، جاء نبى عظيم من إسرائيل اسمه إيليا – الذى ذكر فى التوراة إنه كان هو الآخر يحيى الموتى – إلى هذا المكان للتخلص من الملكة (إيزابيل)، ويستطيع المرء أن يرى، داخل كنيسة النبى إيليا فى جبل سيناء، المغارة التى عاش فيها هذا (النبى) واستحق أن يتكلم مع الله.. وهذا ما خطه «أفانجلوس بابايوانو» فى كتابه عن دير سانت كاترين.

وقد عرفت سيناء من الآثار المصرية باسم «توشويت» أى أرض الجدب والعراء. وعرفت فى الآثار الآشورية باسم «مجان» ولعله تحريف مدين وهو الاسم الذى أطلقه مؤرخو العرب على شمال الحجاز وكما ذكر «نعوم شقير» فى موسوعته تاريخ سيناء القديم والحديث.

وسيناء هى الأرض التى شرفها الله بمرور العائلة المقدسة السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول مريم العذراء ويوسف النجار منها إلى الزقازيق ومصر هروبا من تعقب الرومان لرسول الله. كما أن «طُوى» اسم الوادى الموجود فى سيناء فقد كرمه الله بقوله تعالى إلى موسى ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [سورة طه – الآية ١٢].

والذى لا شك فيه أن سيناء وخلال ردح طويل من الزمن قد أصابها النسيان وجارعليها الزمان حتى أصبحت مصر بالنسبة لها أرض الطغيان Egypt is the land of turany كما عبر العلامة «جمال حمدان».

وقد كان من المعهود أن أى مصرى يريد أن يجوس خلال أرض سيناء فعليه أن يستخرج – ترخيصا – لذلك وكأنه ذاهب إلى مدينة أجنبية، وقد ألغى هذا النظام فى عهد الرئيس أنور السادات.

ولقد آن الآوان لكى نرفع عن سيناء الذلة والهوان.. وإننا لنرى الواجب لتعمير سيناء:

١ – يجب أن يعاد النظر فى اتفاقية كامب ديفيد الموقع عليها فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ والتى أنهت حالة الحرب بين مصر وإسرائيل ببنود فى الاتفاقية سلبية كما جاء فى المادة الثانية الفقرة الخامسة منها والتى تنص على أنه لا يجوز لمصر أن تنشئ أية مطارات حربية فى أى مكان على أرض سيناء، وبالتالى ظلت مصر طوال العقود الثلاثة الماضية والسنوات المقبلة أيضا غير قادرة على أن تنشئ مطارات حربية لها فى هذه المنطقة ووفقا للمادة الخامسة فقرة ٣ من البرتوكول. يجوز لها أن تستعمل المطارات الإسرائيلية التى أنشئت لهذا الغرض قبل توقيع الاتفاقية.

وكذلك المادة الرابعة الفقرة الأولى والخامسة من الملحق العسكرى الذى لا يجيز لمصر أن تنشىء أى مواقع عسكرية على شواطئ سيناء سواء فى البحر الأحمر أو البحر المتوسط. كما أن المادة ١٢٦ من ذات الاتفاقية تحدد لتسليح مصر شرق قناة السويس أسلحة خفيفة لا تسمن ولا تغنى من جوع.

كما أن الاتفاقية لا تجيز لمصر أن يكون لها أى قوة عسكرية مقاتلة أو مسلحة وهو ما يعنى أن أربع أخماس سيناء منزوع السلاح.

كما أن المنطقة (ب) ويبلغ عرضها ١٠٠ كيلو متر التى تمتد من شرق قناة السويس حتى قرية الشيخ زويد على البحر المتوسط شرق العريش وحتى رأس محمد غرب شرم الشيخ

جنوبا لا يوجد بها سوى قوات شرطة مدنية واشترطت إسرائيل فى المعاهدة على ألا تزيد هذه القوات عن أربع كتائب ذات أسلحة خفيفة.

ولقد اخترقت إسرائيل هذه المعاهدة أكثر من مرة وآن الآوان أن تراجع بنود هذه الاتفاقية المجحفة بحق مصر فى بسط نفوذها على أرضها.

٢ – تعمير صحراء سيناء وعلى رأس بنود التعمير يجب أن نولى اهتمامنا لترعة السلام ومشروع السكة الحديد وتنمية قبائل سيناء.

٣ – العمل على تكثيف الهجرة إلى سيناء بما لا يقل عن ثلاثة ملايين نسمة حتى يكون ثمة بحر للكثافة السكانية يغرق فيه من يحاول أن يعتدى على سيناء.

٤ – توزيع نسبة من أراضى ترعة السلام على أبناء سيناء فهم الأقدر على زراعة الأراضى.

٥ – فتح آفاق التصدير لمنتجات سيناء إلى الأسواق الخارجية بعد تنفيذ مشروع تطوير ميناء العريش البحرى.

٦ – التركيز على تنمية وسط سيناء فهو ضرورة قومية وذلك بإنشاء كما ذهب البعض – محافظة ثالثة فى وسط سيناء مع العمل على توصيل مياه النيل إليها.

٧ – مراجعة أو إلغاء كل الاتفاقيات بدءا من اتفاقية الكويز إلى اتفاقية بيع الغاز مع إسرائيل.

ولقد مكثت فى سيناء أيام طوالا منذ شهور قليلة كما سبق القول وتمنيت ألا أخرج من أرضها الطاهرة التى وقعت عليها المعجزات والتى انفردت بها عن بقية العالمين ففيها عند – جبل الطور – كلم الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام كما جاء فى القرآن الكريم.. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [سورة النساء – الآية ١٦٤].

لقد بدأت علاقتى بسيناء منذ عام ١٩٥٧ وفى مرحلة باكرة من حياتى إذ كتبت عنها مقالا نشر بجريدة الأهرام بعنوان «تعمير صحراء سيناء» ثم ثنيت بآخر بجريدة الشعب.

والذى لا مشاحة فيه – أن سيناء هى جوهرة مصر، بطبيعتها الساحرة وجبالها المهيبة التى ترتفع بهاماتها إلى عنان السماء تشهد على عظمة الخالق وقدرته، وجلاله ورهبته عندما يراها الرائى من فوق جبل موسى يبدو له المنظر من أبدع ما رأت العين ومن أروع ما خلق الله فى الطبيعة يترك فى النفس أثرا لا تمحوه الأيام مثلما ترك فى نفسى وأنا

أرى هذا المنظر الخلاب الذى يخطف الألباب عندما شـــددت الرحال إلى سيناء منذ شهور قليلة مع أولادى الذين طابت لهم المعيشة هناك وخرجوا من أرض سيناء.. أرض الأنبياء، والدموع تترقرق فى مآقيهم.

وقد آن الأوان لتعميرها، وجذب المستثمرين إليها، ودعوة السائحين من أرجاء المعمورة لمشاهدة أثارها الدينية المقدسة التى تسحر الرائين.. وتعز على العالمين.

❑❑❑

obeikandl.com